تفسير سورة الأعلى من موسوعة التفسير المأثور والتفسير المحرر.

التفسير المأثور

* مقدمة السورة:

٨٢٦٣٨- عن عائشة، قالت: نزلت سورة (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى) بمكة(1) . (١٥/٣٥٧)

٨٢٦٣٩- عن عبد الله بن عباس -من طريق مجاهد-: مكّيّة(2) . (١٥/٣٥٧)

٨٢٦٤٠- عن عبد الله بن عباس -من طريق عطاء الخُراسانيّ-: مكّيّة، وذكرها باسم: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى)، وأنها نزلت بعد (إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)(3) . (ز)

٨٢٦٤١- عن عبد الله بن الزُّبير، قال: أُنزِلَتْ بمكة سورة (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى)(4) . (١٥/٣٥٧)

٨٢٦٤٢- عن عكرمة مولى ابن عباس= (ز)

٨٢٦٤٣- والحسن البصري -من طريق يزيد النحوي-: مكّيّة، وسمّياها: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى)(5) . (ز)

٨٢٦٤٤- عن قتادة بن دعامة -من طرق-: مكّيّة(6) . (ز)

٨٢٦٤٥- عن محمد بن مسلم الزُّهريّ: مكّيّة، وذكرها باسم: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى)، وأنها نزلت بعد (إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)(7) . (ز)

٨٢٦٤٦- عن علي بن أبي طلحة: مكّيّة(8) . (ز)

٨٢٦٤٧- قال مقاتل بن سليمان: سورة الأعلى مكّيّة، عددها تسع عشرة آية كوفي(9) [7126]. (ز)

٨٢٦٤٨- عن علي، قال: كان رسول الله ﷺ يُحبّ هذه السورة: (سبح اسم ربك الأعلى)(10) . (١٥/٣٥٧)

أخرجه أحمد ٢/ ١٤٢ (٧٤٢). وأورده الثعلبي ١٠/ ١٨٢.

قال المناوي في فيض القدير ٥/ ٢٠٩ (٧٠٠٣): «رمز -السيوطي- لحسنه، قال الحافظ العراقي: سنده ضعيف. هكذا جزم به واقتصر عليه، وبيّنه تلميذه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٣٦ (١١٤٨٤) قال: فيه ثور بن أبي فاختة؛ وهو متروك. انتهى، وبه يُعرف أن رمز المصنف لحُسنه زلل فاحش». وقال في التيسير ٢/ ٢٧٣: «إسناد ضعيف». وقال الألباني في الضعيفة ٩/ ٢٦٢ (٤٢٦٦): «ضعيف جدًّا».

٨٢٦٤٩- عن عبد الله بن عباس -من طريق عكرمة- قال: لما نزلت: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى)، قال: كلّها في صحف إبراهيم وموسى، فلما نزلت: (وإبْراهِيمَ الَّذِي وفّى) [النجم:٣٧]، قال: وفّى ألّا تَزِرُ وازرة وِزْر أخرى(11) . (ز)

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (5) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8).

******

سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١

قراءات:

٨٢٦٥٠- عن سعيد بن جُبَير، قال: سمعتُ ابن عمر يقرأ: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى). فقال: سبحان ربي الأعلى.= (ز)

٨٢٦٥١- قال: وكذلك هي في قراءة أُبيّ بن كعب(12) . (١٥/٣٦٤)

نزول الآية:

٨٢٦٥٢- عن أبي هريرة، قال: قلنا: يا رسول الله، كيف نقول في سجودنا؟ فأنزل الله: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى). فأمَرَنا رسول الله ﷺ أن نقول في سجودنا: سبحان ربي الأعلى -وِترًا-(13) . (١٥/٣٦١)

أخرجه الطبراني في الدعاء ص ١٩١ (٥٨٥)، وآدم ابن أبي إياس-كما في تفسير مجاهد ص ٧٢٢ - واللفظ له، والواحدي في التفسير الوسيط ٤/ ٤٦٩ (١٣٣٠) من طريق سلام الطويل [أو محمد بن الفضل]، عن زيد العمّي، عن مُرّة الهمذاني [أو مُعاوية بن قرّة]، عن أبي هريرة به.

إسناده واهٍ؛ فيه سلام الطويل، وهو ابن سليم أو سلم أبو سليمان المدائني، قال عنه ابن حجر في التقريب (٢٧٠٢): «متروك». وفيه محمد بن الفضل بن عطية العبدي العبسي؛ قال عنه ابن حجر في التقريب (٦٢٢٥): «كذّبوه». وفيه زيد بن الحواري أبو الحواري العمّي البصري، قال عنه ابن حجر في التقريب (٢١٣١): «ضعيف».

٨٢٦٥٣- عن عُقبة بن عامر الجهني، قال: لَمّا أُنزِلَتْ: (فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ) [الواقعة:٧٤]؛ قال لنا رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم». فلما نزلت: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى) قال: «اجعلوها في سجودكم»(14) . (١٥/٣٦٢)

أخرجه أحمد ٢٨/ ٦٣٠ (١٧٤١٤)، وأبو داود ٢/ ١٥١ - ١٥٢ (٨٦٩ - ٨٧٠)، وابن ماجه ٢/ ٥٧ (٨٨٧)، وابن خزيمة ١/ ٦٣٢، ٦٣٣ (٦٠٠، ٦٠١)، ١/ ٦٧٨ (٦٧٠) مختصرًا، وابن حبان ٥/ ٢٢٥ - ٢٢٦ (١٨٩٨)، والحاكم ١/ ٣٤٧ (٨١٧، ٨١٨)، ٢/ ٥١٩ (٣٧٨٣)، والثعلبي ٩/ ٢٢٦.

قال الحاكم في الموضع الأول: «هذا حديث حجازي، صحيح الإسناد، وقد اتفقا على الاحتجاج برواته، غير إياس بن عامر، وهو عمّ موسى بن أيوب القاضي، ومستقيم الإسناد، ولم يخرجاه بهذه السياقة». وقال الذهبي في التلخيص: «إياس ليس بالمعروف». وقال ابن حبان: «قال أبو حاتم؟: عمّ موسى بن أيوب اسمه: إياس بن عامر، من ثقات المصريين». وقال الحاكم في الموضع الثاني: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». ووافقه الذهبي في التلخيص. وقال النووي في خلاصة الأحكام ١/ ٣٩٦ (١٢٥٥): «رواه أبو داود، وابن ماجه، بإسناد حسن». وقال ابن رجب في فتح الباري ٧/ ١٧٦: «موسى -ابن أيوب الغافقي- وثّقه ابن معين، وأبو داود، وغيرهما، لكن ضعَّف ابن معين رواياته عن عمّه المرفوعة خاصة». وقال الألباني في الإرواء ٢/ ٤٠ (٣٣٤): «ضعيف». وقال في ضعيف أبي داود ١/ ٣٣٧ (١٥٢): «قلتُ: إسناده ضعيف؛ عمّ موسى بن أيوب اسمه: إياس بن عامر الغافقي، وليس بالمعروف. كما قال الذهبي».

تفسير الآية:

٨٢٦٥٤- قال عبد الله بن عباس: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى)، أي: صَلِّ بأمر ربّك الأعلى(15) . (ز)

٨٢٦٥٥- قال مقاتل بن سليمان: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى) نزِّه اسمَ ربّك الأعلى، يقول: نزِّهه من الشرك بشهادة: أن لا إله إلا الله(16) [7127]. (ز)

[٧١٢٧] اختُلف في معنى: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى) على قولين: الأول: صلِّ بأمر ربّك. الثاني: نزِّه اسم ربّك الأعلى. وزاد ابنُ جرير (٢٤/ ٣٠٩ - ٣١١) أقوالًا أخرى: الثالث: عظِّم ربَّك الأعلى. الرابع: نزِّه اسم ربّك الأعلى أن تُسمِّيَ به شيئًا سواه. الخامس: نزِّه الله عما يقول فيه المشركون. السادس: نزِّه تسميتك -يا محمد- ربّك الأعلى، وذِكْرَك إيّاه، أن تَذْكُره إلا وأنت له خاشعٌ متذلِّلٌ؛ قالوا: وإنما عني بالاسم: التسمية، ولكن وُضِع الاسم مكان المصدر. السابع: صلِّ بِذِكْر ربِّك، يا محمد، يعني بذلك: صلِّ وأنت له ذاكر، ومنه وجلٌ خائفٌ.

ثم رجَّح (٢٤/ ٣١١) -مستندًا إلى السنة، وأقوال السلف- أنّ المعنى «نزِّه اسم ربك الأعلى لما ذكرتُ مِن الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة أنهم كانوا إذا قرؤوا ذلك قالوا: سبحان ربيَ الأعلى، فبيِّنٌ بذلك أنّ معناه كان عندهم: عظِّم اسم ربِّك، ونزِّهْه».

آثار متعلقة بالآية:

٨٢٦٥٦- عن عبد الله بن عباس: أنّ رسول الله ﷺ كان إذا قرأ: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى)، قال: «سبحان ربي الأعلى»(17) . (١٥/٣٦٣)

أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٥ (٢٠٦٦)، وأبو داود ٢/ ١٦٠ (٨٨٣)، والحاكم ١/ ٣٩٥ (٩٧٠)، والثعلبي ١٠/ ١٨٢.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح، على شرط الشيخين، ولم يخرجاه». وقال السيوطي في الشمائل الشريفة ص ١٩٠ (٣٠٦): «صَحَّ».

٨٢٦٥٧- عن قتادة بن دعامة، قال: ذُكر لنا: أنّ النبي ﷺ كان إذا قرأها قال: «سبحان ربي الأعلى»(18) . (١٥/٣٦٤)

٨٢٦٥٨- عن عمر بن الخطاب –من طريق أبي نضرة-أنه كان إذا قرأ: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى) قال: سبحان ربي الأعلى(19) . (١٥/٣٦٤)

٨٢٦٥٩- عن علي بن أبي طالب – من طريق عبد خير-أنه قرأ: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى)، فقال: سبحان ربي الأعلى. وهو في الصلاة، فقيل له: أتزيد في القرآن؟ قال: لا، إنما أُمرنا بشيء فقُلته(20) . (١٥/٣٦٣)

٨٢٦٦٠- عن أبي موسى الأشعري- من طريق عمير بن سعيد- أنه قرأ في الجمعة: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى)، فقال: سبحان ربي الأعلى(21) . (١٥/٣٦٤)

٨٢٦٦١- عن عبد الله بن عباس -من طريق سعيد بن جُبَير- أنه كان إذا قرأ: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى) قال: سبحان ربي الأعلى(22) . (١٥/٣٦٣)

٨٢٦٦٢- عن عبد الله بن عباس، قال: إذا قرأتَ: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى)؛ فقُل: سبحان ربي الأعلى(23) . (١٥/٣٦٣)

٨٢٦٦٣- عن عبد الله بن الزُّبير –من طريق هشام-أنه قرأ: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى)؛ فقال: سبحان ربي الأعلى. وهو في الصلاة(24) . (١٥/٣٦٤)

٨٢٦٦٤- عن الضَّحّاك بن مُزاحِم أنه كان يقرؤها كذلك، ويقول: مَن قرأها فليقُل: سبحان ربي الأعلى(25) . (١٥/٣٦٤)

*****

(ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢)

تفسير:

٨٢٦٦٥- قال محمد بن السّائِب الكلبي: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوّى) خَلَق كلّ ذي روح، فسَوّى اليدين والرِّجلين والعينين(1) . (ز)

٨٢٦٦٦- قال مقاتل بن سليمان: (الَّذِي خَلَقَ) الإنسان في بطن أُمّه مِن نُطفة، ثم من عَلقة، ثم من مُضغة، (فَسَوّى) فسوّى خَلْقه(2) [7128]. (ز)

[٧١٢٨] نقل ابنُ القيم (٣/ ٢٩١) عن أبي إسحاق أنّ معنى الآية: «خَلَق الإنسان مستويًا». ثم وجَّهه بقوله: «وهذا تمثيل، وإلا فالخَلْق والتسوية شامل للإنسان وغيره. قال تعالى: (ونَفْسٍ وما سَوّاها) [الشمس: ٧]، وقال: (فَسَوّاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ) [البقرة: ٢٩]، فالتسوية شاملة لجميع مخلوقاته».

******

(وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ٣)

تفسير:

٨٢٦٦٧- عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح- في قوله: (والَّذِي قَدَّرَ فَهَدى)، قال: هَدى الإنسان للشِّقْوة والسعادة، وهدى الأنعام لِمَراتعها(1) [7129]. (١٥/٣٦٥)

[٧١٢٩] علَّق ابنُ تيمية (٦/ ٥٣٦) على قول مجاهد بقوله: «وقول مجاهد في قوله: (قَدَّرَ فَهَدى): هدى الإنسان للسعادة والشقاوة. يبيّن أنّ هذا عنده مما دخل في قوله: (قَدَّرَ فَهَدى)، أي: هدى السعداء إلى السعادة التي قدّرها، وهدى الأشقياء إلى الشقاء الذي قدّره».

٨٢٦٦٨- قال الحسن البصري: (فَهَدى) بيّن له السبيل؛ سبيل الهدى، وسبيل الضلالة(2) . (ز)

٨٢٦٦٩- قال عطاء: جعل لكلّ دابة ما يُصلحها، وهداها له(3) . (ز)

٨٢٦٧٠- قال إسماعيل السُّدِّيّ: قدّر مدة الجنين في الرَّحِم، ثم هداه للخروج مِن الرَّحِم(4) . (ز)

٨٢٦٧١- قال محمد بن السّائِب الكلبي: عرّف خلقه كيف يأتي الذَّكَرُ الأنثى(5) . (ز)

٨٢٦٧٢- قال مقاتل بن سليمان: (والَّذِي قَدَّرَ فَهَدى) الذي قدّر الولد في بطن أُمّه تسعة أشهر، فلما بلغ الوقت هداه للخروج مِن بطن أُمّه، وأيضًا قوله: (قَدَّرَ فَهَدى) يعني: قدّر الذَّكَر والأنثى؛ فعلّمه كيف يأتيها، وكيف تأتيه(6) [7130]. (ز)

[٧١٣٠] اختُلف في معنى: (فَهَدى) في هذه الآية على أقوال: الأول: هدى الإنسان لسبيل الخير والشر، والبهائم للمراتع. الثاني: جعل لكلّ دابة ما يُصلِحها وهداها إليه. الثالث: قدَّر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج. الرابع: هدى الذَّكَر لإتيان الأنثى.

وذكر ابنُ عطية (٨/ ٥٩٠) القول الأول، والرابع، وزاد عليهما قولين آخرين: أحدهما: عن الفراء أنّ المعنى: «هدى وأضلَّ، واكتفى بالواحدة لدلالتها على الأخرى». والآخر: «هدى المولود عند وضْعه إلى مصِّ الثدي». ثم علَّق على هذه الأقوال بقوله: «وهذه الأقوال مثالات».

ووافقه ابنُ تيمية (٦/ ٥٣٩).

ووجَّه ابنُ القيم (٣/ ٢٩٢) القول الأول -وهو قول مجاهد-، والقول الرابع بقوله: «وما ذَكر مجاهد فهو تمثيل منه، لا تفسير مطابق للآية، فإنّ الآية شاملة لهداية الحيوان كلّه؛ ناطقه وبهيمه، طيره ودوابّه، فصيحه وأعجمه. وكذلك قول مَن قال: إنه هداية الذَّكَر لإتيان الأنثى. تمثيل أيضًا، وهو فرد واحد من أفراد الهداية التي لا يحصيها إلا الله، وكذلك قول مَن قال: هداه للمرعى. فإنّ ذلك من الهداية؛ فإنّ الهداية إلى التقام الثدي عند خروجه من بطن أمه والهداية إلى معرفته أُمّه دون غيرها حتى يتبعها أين ذهبتْ، والهداية إلى قصْد ما ينفعه من المرعى دون ما يضرّه منه، وهداية الطير والوحش والدواب إلى الأفعال العجيبة التي يعجز عنها الإنسان، كهداية النّحل إلى سلوك السبل التي فيها مراعيها على تباينها ثم عوْدها إلى بيوتها من الشجر والجبال وما يغرس بنو آدم».

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٣١٢) العموم، وذلك: «أنّ الله عمَّ بقوله: (فَهَدى) الخبر عن هدايته خَلْقَه، ولم يَخْصُصْ من ذلك معنًى دون معنًى، وقد

هداهم لسبيل الخير والشر، وهدى الذكور لِمَأْتى الإناث، فالخبر على عمومه، حتى يأتي خبرٌ تقوم به الحجة دالٌّ على خصوصه».

وكذا رجحه ابنُ عطية قائلًا: «والعموم في الآية أصوب في كلّ تقدير وفي كلّ هداية».

ونحوه قال ابنُ القيم (٣/ ٢٩٢).

وأشار ابنُ تيمية (٦/ ٥٣٩) إلى ضعف قول الفرّاء.

وانتقده ابنُ القيم أيضًا -مستندًا إلى النظائر، ودلالة العقل- قائلًا: «وأضعف الأقوال فيها قول الفراء: إذ المراد هاهنا الهداية العامة لمصالح الحيوان في معاشه، ليس المراد هداية الإيمان والضلال بمشيئته، وهو نظير قوله: (رَبُّنا الَّذِي أعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى) [طه: ٥٠]، فإعطاء الخَلْق إيجاده في الخارج والهداية التعليم والدلالة على سبيل بقائه وما يحفظه ويقيمه».

****

(وَٱلَّذِیٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ٤)

تفسير:

٨٢٦٧٣- عن أبي رَزِين [مسعود بن مالك الأسدي] -من طريق منصور- (أخْرَجَ المَرْعى)، قال: النبات(1) . (ز)

٨٢٦٧٤- عن إبراهيم النَّخْعي، (والَّذِي أخْرَجَ المَرْعى)، قال: النبات(2) . (١٥/٣٦٥)

٨٢٦٧٥- عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- قوله: (والَّذِي أخْرَجَ المَرْعى) الآية: نبت كما رأيتم بين أصفر وأحمر وأبيض(3) . (ز)

****

(فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ٥)

__تفسير:__

٨٢٦٧٦- عن عبد الله بن عباس -من طريق علي- في قوله: (فَجَعَلَهُ غُثاءً) قال: هشيمًا، (أحْوى) قال: مُتَغَيِّرًا(1) . (١٥/٣٦٥)

٨٢٦٧٧- عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح- (فَجَعَلَهُ غُثاءً) قال: غُثاء السّيل، (أحْوى) قال: أسود(2) . (١٥/٣٦٥)

٨٢٦٧٨- قال الحسن البصري: (أحْوى) الأسود مِن شدة الخُضرة(3) . (ز)

٨٢٦٧٩- عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر- في قوله: (فَجَعَلَهُ غُثاءً أحْوى) قال: الغُثاء: الشيء البالي، (أحْوى) قال: أصفر وأخضر وأبيض، ثم ييبس حتى يكون يابسًا بعد خُضرة(4) . (١٥/٣٦٥)

٨٢٦٨٠- قال مقاتل بن سليمان: (فَجَعَلَهُ غُثاءً أحْوى) بصُنعه، الذي أخرج الحشيش والكلأ في الشتاء، فتراه رطبًا، فيجعله بعد الرطوبة والخُضرة إلى اليبوسة(5) . (ز)

٨٢٦٨١- قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- في قوله: (فَجَعَلَهُ غُثاءً أحْوى)، قال: كان بقْلًا ونباتًا أخضر، ثم هاج فيبس، فصار غُثاءً أحوى، تذهب به الرياح والسِّيول(6) [7131]. (ز)

[٧١٣١] نقل ابنُ جرير (٢٤/ ٣١٤) في معنى الآية عن «بعض أهل العلم بكلام العرب أنّ ذلك من المؤخَّر الذي معناه التقديم، وأنّ معنى الكلام: والذي أخرج المرعى أحوى، أي: أخضر إلى السواد، فجعله غثاءً بعد ذلك ...». ثم انتقده -مستندًا إلى مخالفة أقوال السلف- قائلًا: «وهذا القول -وإن كان غير مدفوعٍ أن يكون ما اشتدتْ خُضرته من النبات، قد تُسمّيه العرب أسود- غيرُ صوابٍ عندي؛ لخلافه تأويل أهل التأويل في أنّ الحرف إنما يُحتال لمعناه المُخرَج بالتقديم والتأخير، إذا لم يكن له وجْهٌ مفهومٌ إلا بتقديمه عن موضعه أو تأخيره، فأمّا وله في موضعه وجْهٌ صحيحٌ، فلا وجْه لطلب الاحتيال لمعناه بالتقديم والتأخير».

******

(سَنُقرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ٦)

نزول الآية:

٨٢٦٨٢- عن عبد الله بن عباس، قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أتاه جبريل بالوحي لم يفرغ جبريل مِن الوحي حتى يُزمَّل(1) مِن ثِقَل الوحي، حتى يتكلّم النبيُّ ﷺ بأوله؛ مخافة أن يُغشى عليه فيَنسى، فقال له جبريل: لِمَ تفعل ذلك؟ قال: «مخافة أن أنسى». فأنزل الله: (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى إلّا ما شاءَ اللَّهُ)، فالنبيُّ ﷺ نسي آيات مِن القرآن ليس بحلال ولا حرام، ثم قال له جبريل: إنه لم يَنزل على نبيٍّ قبلك إلا نسي وإلا رُفع بعضه. وذلك أنّ موسى أهبط الله عليه ثلاثة عشر سِفرًا، فلما ألقى الألواح انكسرتْ وكانت مِن زُمُرّد، فذهب أربعة، وبقي تسعة(2) . (١٥/٣٦٦)

أخرجه الطبراني في الكبير ١٢/ ١٢٠ (١٢٦٤٩).
قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٣٦ (١١٤٨٥): «وفيه جويبر، وهو ضعيف».

٨٢٦٨٣- عن عبد الله بن عباس، قال: كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يستذكر القرآن مخافة أن ينساه، فقيل له: كفيناك ذلك. ونزلت: (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى)(3) . (١٥/٣٦٦)
٨٢٦٨٤- عن سعد بن أبي وقاص، نحوه(4) . (١٥/٣٦٦)
٨٢٦٨٥- قال مجاهد بن جبر= (ز)
٨٢٦٨٦- ومحمد بن السّائِب الكلبي: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه جبريل لم يفرغ من آخر الآية حتى يتكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأولها مخافة أن ينساها؛ فأنزل الله تعالى: (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى) فلم ينسَ بعد ذلك شيئًا(5) . (ز)

تفسير الآية:

٨٢٦٨٧- عن عبد الله بن عباس: (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى إلّا ما شاءَ اللَّهُ)، يقول: إلا ما شئتُ أنا فأُنسيك(6) . (١٥/٣٦٦)
٨٢٦٨٨- عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح- في قوله: (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى)، قال: كان يتذكّر القرآن في نفسه مخافة أن ينسى(7) . (١٥/٣٦٥)

٨٢٦٨٩- عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر- في قوله: (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى إلّا ما شاءَ اللَّهُ)، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينسى شيئًا إلا ما شاء الله(8) . (١٥/٣٦٧)

٨٢٦٩٠- قال مقاتل بن سليمان: (سَنُقْرِئُكَ) القرآن، يا محمد؛ نجمعه في قلبك، (فَلا تَنْسى) فلا تنساه أبدًا، (إلّا ما شاءَ اللَّهُ) يعني: إلا ما شاء الله فينسخها، ويأتِ بخير منها(9) [7132]. (ز)

[٧١٣٢] اختُلف في معنى: (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى إلّا ما شاءَ اللَّهُ) على أقوال: الأول: إخبارٌ من الله نبيَّه بقوله: سنُقرِئُك فلا تنسى إلا ما شئتُ أنا فأُنسيك. الثاني: سنعلِّمك القرآن، ونجمعه في قلبك فلا تنساه أبدًا، كما قال -جلَّ ثناؤه-: (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ) الآية [القيامة: ١٦ - ١٧]، والاستثناء في هذا الموضع على النسيان، والمعنى: فلا تنسى إلا ما شاء الله أن تنساه ولا تَذْكُره، وذلك هو ما نسخه الله من القرآن، فرَفَع حُكْمَه وتلاوتَه.

ووجَّه ابنُ عطية (٨/ ٥٩٢) القول الأول بقوله: على نحو قوله صلى الله عليه وسلم: «إني لأنسى، وأُنَسّى لأَسُنَّ». ووجَّه (٨/ ٥٩١) القول الثاني بقوله: «وفي هذا التأويل آية للنبي صلى الله عليه وسلم في أنه أُمِّيٌّ، وحفظ الله تعالى عليه الوحي، وأمَّنه من نسيانه».

ونقل ابنُ جرير (٢٤/ ٣١٦ بتصرف) قولين آخرين: أحدهما: أنّ «معنى النسيان في هذا الموضع: التَّرْك، وأنّ معنى الكلام: سنقرئك، يا محمد، فلا تَتْرُكُ العمل بشيءٍ منه، إلا ما شاء الله أن تَتْرُكَ العمل به، مما ننسَخُه». والآخر: أنّ «بعض أهل العربية كان يقول في ذلك: لم يشأ اللهُ أن تَنسى شيئًا، وهو كقوله: (خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّمَواتُ والأَرْضُ إلّا ما شاءَ رَبُّكَ) [هود: ١٠٨] ولا يشاء. قال: وأنتَ قائلٌ في الكلام: لأُعطينَّك كلّ ما

سألتَ إلا ما شئتُ، وإلا أنْ أشاءَ أنْ أمنعَك. والنِّيَّةُ أن لا تمنعه، ولا تشاءَ شيئًا. قال: وعلى هذا مجاري الأيمان، يُستَثنى فيها، ونيَّة الحالف التَّمام».
ثم رجَّح القول الثاني مستندًا إلى الأظهر لغة، وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّ ذلك أظهرُ معانيه».

ونقل ابنُ عطية (٨/ ٥٩١) عن آخرين: أنّ هذه الآية «وعدٌ بإقراء الشرع والسور، وأَمْرٌ بأن لا ينسى، على معنى التثبيت والتأكيد، وقد علم تعالى أنّ تَرْك النسيان ليس في قدرته، فهو نهيٌ عن إغفال التعاهد». ونقل (٨/ ٥٩٢) عن بعض المتأولين أنّ معنى الاستثناء: «إلا ما شاءَ اللَّهُ أن يغلبك النسيان عليه، ثم يذكِّرك به بعد». ثم وجَّهه بقوله: «ومن هذا قول النبي حين سمع قراءة عبّاد بن بشر: «رحمه الله تعالى، لقد أذْكرني كذا وكذا آيةً في سورة كذا». ثم علَّق بقوله:» ونسيان النبي ﷺ ممتنعٌ فيما أُمِر بتبليغه؛ إذ هو معصوم، فإذا بلَّغه ووُعِيَ عنه فالنسيان جائزٌ، على أن يتذكر بعد ذلك، أو على أن يسنّ، أو على النسخ".

٨٢٦٩١- عن مالك بن أنس -من طريق ابن وهب- في قول الله: (سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى)، قال: تأويل ذلك: أن سنقرئك، فتَحْفَظ(10) . (ز)

******

(إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُۥ يَعلَمُ ٱلجَهرَ وَمَا يَخفَىٰ ٧)

<u>تفسير:</u>

٨٢٦٩٢- عن سعيد بن جُبَير، (إنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وما يَخْفى)، قال: ما أخفيتَ في نفسك(1) . (١٥/٣٦٧)

٨٢٦٩٣- عن سعيد بن جُبَير، (إنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وما يَخْفى)، قال: الوسوسة(2) . (١٥/٣٦٧)

٨٢٦٩٤- عن مجاهد بن جبر، في قوله: (إنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وما يَخْفى)، قال: الوسوسة(3) . (١٥/٣٦٧)

٨٢٦٩٥- عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر- في قوله: (إنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وما يَخْفى)، قال: الوسوسة(4) . (١٥/٣٦٧)

٨٢٦٩٦- قال مقاتل بن سليمان: (إنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ) من القول والفعل، (وما يَخْفى) منهما(5) . (ز)

****

(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسرَىٰ ٨)

تفسير:

٨٢٦٩٧- عن عبد الله بن مسعود، في قوله: (ونُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى)، قال: الجنة(1) . (١٥/٣٦٧)

٨٢٦٩٨- عن عبد الله بن عباس، في قوله: (ونُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى)، قال: للخير(2) . (١٥/٣٦٧)

٨٢٦٩٩- قال مقاتل بن سليمان: (ونُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرى) ونبدلك مكان آية بأيسر منها(3) . (ز)

التفسير المحرر

سورةُ الأعلَى

سُمِّيَت هذه السُّورةُ:

1- سورةَ الأَعْلى .

2- سورةَ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى:

فعن جابِرٍ رضِيَ الله عنه، قال: ((كان مُعاذٌ يُصَلِّي مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ يأتي فيَؤُمُّ قَومَه، فصَلَّى لَيلةً مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم العِشاءَ، ثمَّ أتى قَومَه فأَمَّهم، فافتَتَح بسُورةِ البَقَرةِ...)) وفيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال لِمُعاذٍ رضيَ الله عنه: ((اقرَأْ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى، وسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى)) .

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِي اللهُ عنهما، قال: ((جاءَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فما رأيتُ أهلَ المدينةِ فَرِحوا بشَيءٍ فَرَحَهم به، حتَّى رأيتُ الولائِدَ والصِّبيانَ يقولونَ: هذا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد جاء، فما جاء رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى قرأتُ: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى في سُوَرٍ مِثلِها)) .

فضائل السورة وخصائصها:

1- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بها في الرَّكعةِ الأُولى مِن صَلاتَيِ الجُمُعةِ والعِيدِ.

فعن النُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ في العيدَينِ وفي الجُمُعةِ بـ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى وهَلْ

أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ، قال: وإذا اجتمَع العيدُ والجُمُعةُ في يومٍ واحدٍ يَقرَأُ بهما أيضًا في الصَّلاتَينِ)) .

أخرجه مسلم (878). ومِن حِكَمِ قِراءةِ سورةِ الأعلى وسورةِ الغاشيةِ في صلاةِ الجُمُعةِ والعيدينِ أنَّ فيهما مِن التَّذكيرِ بأحوالِ الآخرةِ والوعدِ والوعيدِ ما يُناسِبُ قِراءَتَهما في تلكَ الصَّلواتِ الجامعةِ. يُنظر: ((عون المعبود)) للعظيم آبادي (3/333).

وعن سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقرأُ في صلاةِ الجُمُعةِ بـ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى وهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)) .

وعنه أيضًا: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في العيدَينِ بـ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى وهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ)) .

2- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بها في الرَّكعةِ الأُولى مِن الرَّكعتَينِ قبْلَ الوِتْرِ.

فعن عبدِ اللهِ بن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُوتِرُ بثلاثٍ، يقرأُ في الأولى بـ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، وفي الثَّانيةِ بـ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، وفي الثَّالثةِ بـ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)) .

بيان المكي والمدني:

سُورةُ الأعلى مَكِّيَّةٌ ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ .

مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (4/431).

وقيل: إنَّها مَدَنيَّةٌ. قال ابنُ عطيَّة: (وذلك ضَعيفٌ، وإنَّما دعا إليه قَولُ مَن قال: إنَّ ذِكرَ صَلاةِ العيدِ فيها). ((تفسير ابن عطية)) (5/439). ويُنظر: ((تفسير جرير)) (24/309)، ((الوسيط)) للواحدي (4/468)، ((تفسير الزمخشري)) (737).

مقاصد السورة:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

إبرازُ جانبٍ عظيمٍ مِن نِعَمِ الله تعالى الَّتي لا تُحصَى .

موضوعات السورة:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- استِفتاحُ السُّورةِ بتَنزيهِ اللهِ تعالى.

2- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ سُبحانَه.

3- امتِنانُ اللهِ تعالى على نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتأييدُه وتَثبيتُه.

4- ذِكرُ المُنتَفِعينَ بالذِّكرى ومَن يُعرِضُ عنها ومَصيرُه.

5- ذِكرُ بَعضِ ما في صُحُفِ إبراهيمَ ومُوسى عليهما السَّلامُ.

سم الله الرحمن الرحيم

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (5) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8).

<u>غريب الكلمات:</u>

غُثَاءً: أي: يابِسًا هَشيمًا جافًّا، والغُثاءُ: ما تحطَّمَ مِن يَبْسِ البَقلِ يأتي به السَّيلُ فيَقذِفُه على جانِبِ الوادي، وأصلُ (غثي): يدُلُّ على ارتفاعِ شَيءٍ دَنِيٍّ .

أَحْوَى: أي: أَسْوَدَ بَعْدَ الخُضرةِ؛ وذلك أنَّ الرَّطْبَ إذا جَفَّ يَبِسَ واسْوَدَّ، وأصلُ (حوي): يدُلُّ على جَمعٍ .

<u>المعنى الإجمالي:</u>

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بخِطابِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: نَزِّهْ ربَّك الأَعْلى -يا محمَّدُ- بقَلْبِك ولسانِك عن كُلِّ سُوءٍ ونَقْصٍ، واذكُرْه بقَولِك: سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى.

ثمَّ يقولُ تعالى واصفًا ذاتَه: هو الَّذي خَلَق كُلَّ شَيءٍ مِنَ العَدَمِ، فأتْقَنَه وجعَلَه في أحسَنِ صورةٍ، والَّذي قدَّرَ مَقاديرَ الخلائِقِ، فهدى كُلَّ مَخلوقٍ لتَحصيلِ مَصالِحِه، والَّذي أخرَجَ مِنَ الأرضِ النَّباتَ أخضَرَ، فجَعَلَه يابِسًا أسْوَدَ بعْدَ أن كان مُخضَرًّا.

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه جانبًا مِن مَظاهرِ فضلِه على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: سنُلْهِمُك -يا محمَّدُ- قِراءةَ القُرآنِ، فتحفَظُه في صَدْرِك، ولا تَنْساه، إلَّا ما شاء اللهُ أن يُنسِيَكه مِن القُرآنِ؛ إنَّ اللهَ يَعلَمُ السِّرَّ والعَلانيَةَ، ونشرعُ لك -يا محَمَّدُ- شرعًا سهلًا سَمحًا مُستقيمًا عَدلًا، ونسهِّلُ عليك أفعالَ الخَيرِ وأقوالَه، ونوَفِّقُك للطَّريقةِ اليُسْرى في كلِّ أمرٍ مِن أُمورِ الدِّينِ والدُّنيا.

<u>تفسير الآيات:</u>

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1).

أي: نَزِّهْ ربَّك -يا محمَّدُ- بقَلْبِك ولسانِك عن كُلِّ سُوءٍ ونَقْصٍ، وهو الخالِقُ المالِكُ المدَبِّرُ لكُلِّ شَيءٍ، المتَّصِفُ بالعُلُوِّ المُطلَقِ؛ واذكُرْه بقَولِك: سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/309، 310)، ((الوسيط)) للواحدي (4/469)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (6/199)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيِّم (2/197)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (1/19)، ((نظم الدرر)) للبِقاعي (21/388-390)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/273، 274)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 157، 158). قيل: معنى الآيةِ: نَزِّهْ -يا محمَّدُ- اسمَ رَبِّك الأعلى أن تُسَمِّيَ به شَيئًا سِواه، فنَهاه بذلك أن يفعَلَ ما فعله المُشرِكونَ مِن تسميَتِهم آلهتَهم باللَّاتِ أو العُزَّى؛ فاللَّاتُ قيل: مشتقَّةٌ مِن اسمِ اللهِ، أو الإلهِ، والعُزَّى: مِنَ العزيزِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/310). قال البِقاعي: (أمَرَ أكمَلَ خَلقِه رسولَه المُنزَّلَ عليه هذا القرآنُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتنزيهِ اسمِه؛ لأنَّه وحْدَه العالِمُ بذلك حقَّ عِلمِه، وإذا نزَّه اسمَه عن أن يَدعوَ به وثَنًا أو غيرَه أو يَضَعَه في غيرِ ما يَليقُ به؛ كان لِذَاتِه سُبحانَه أشَدَّ تَنزيهًا). ((نظم الدرر)) (21/388). وهذا المعنى الَّذي ذهب إليه ابنُ جرير، جَعَله ابنُ تيميَّةَ معنًى تابعًا للمرادِ مِنَ الآيةِ، وليس هو المعنى المقصودَ بها أصالةً -أي: أنَّ مِن لازِمِ تَنزيهِ المُسمَّى تنزيهَ اسمِه-، وذهب إلى أنَّ قَولَه: اسْمَ رَبِّكَ يعني: مُسَمَّى رَبِّك؛

لأنَّ التَّسبيحَ ليس للاسمِ، بل لله نَفْسِه. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (6/199) و (16/323). وقيل: المعنى: سَبِّحْ رَبَّك ذاكِرًا اسمَه، يعني: لا تُسَبِّحْه بالقَلبِ فقط، بل سَبِّحْه بالقَلبِ واللِّسانِ، وذلك بذِكْرِ اسمِه تعالى. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الواحديُّ، وابنُ القيِّمِ وحكاه عن شيخِه ابنِ تيميَّةَ، واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (4/469)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (1/19)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 158). قال الرَّسْعَني: (قال الزَّجَّاجُ وجمهورُ المفسِّرينَ واللُّغَويِّينَ: نَزِّهْ ربَّك عن السُّوءِ، وقُلْ: سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى). ((تفسير الرسعني)) (8/587). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (5/ 315)، ((الوسيط)) للواحدي (4/469). وقال ابنُ القَيِّم: (الذِّكْرُ الحقيقيُّ محلُّه القلبُ؛ لأنَّه ضدُّ النِّسيانِ، والتَّسبيحُ نَوعٌ مِن الذِّكْرِ، فلو أُطلِقَ الذِّكرُ والتَّسبيحُ لَمَا فُهِم منه إلَّا ذلك دونَ اللَّفظِ باللِّسانِ، واللهُ تعالى أراد مِن عِبادِه الأمْرَينِ جميعًا، ولم يَقْبَلِ الإيمانَ وعَقْدَ الإسلامِ إلَّا باقتِرانِهما واجتِماعِهما، فصار معنى الآيتَينِ [أي: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ووَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ]: سَبِّحْ رَبَّك بقَلْبِك ولسانِك، واذكُرْ رَبَّك بقَلْبِك ولسانِك، فأقحَمَ الاسمَ تنبيهًا على هذا المعنى؛ حتَّى لا يَخلوَ الذِّكرُ والتَّسبيحُ مِنَ اللَّفظِ باللِّسانِ؛ لأنَّ ذِكرَ القَلْبِ مُتعَلَّقُه المُسمَّى المَدلولُ عليه بالاسمِ دون ما سِواه، والذِّكرَ باللِّسانِ متعَلَّقُه اللَّفظُ مع مَدلولِه؛ لأنَّ اللَّفظَ لا يُرادُ لنَفْسِه، فلا يَتوهَّم أحدٌ أنَّ اللَّفظَ هو المُسَبَّحُ دونَ ما يدُلُّ عليه مِن المعنى، وعَبَّرَ لي شيخُنا أبو العبَّاسِ ابنُ تيميَّةَ -قدَّس اللهُ رُوحَه- عن هذا المعنى بعبارةٍ لطيفةٍ وَجيزةٍ، فقال: المعنى: سَبِّحْ ناطِقًا باسمِ رَبِّك، مُتكَلِّمًا به، وكذا: مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا

أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا [يوسف: 40]، سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ المعنى: سَبِّحْ رَبَّك ذاكِرًا اسْمَه). ((بدائع الفوائد)) (1/19).

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما: (أنَّه كان إذا قَرأ...: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى قال: سُبْحانَ ربِّيَ الأعلَى) .
أخرجه عبد الرَّزَّاق (4051) واللَّفظُ له، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (2100). صحَّحه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (2/48)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صفة الصلاة)) (ص: 105).

الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2).

<u>مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:</u>

لَمَّا أمَرَ سُبحانَه بالتَّسبيحِ، فكأنَّ سائِلًا قال: الاشْتِغالُ بالتَّسبيحِ إنَّما يَكونُ بَعْدَ المَعرِفةِ؛ فما الدَّليلُ على وُجودِ الرَّبِّ؟ فقال :
الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2).
أي: الَّذي خَلَق كُلَّ شَيءٍ مِنَ العَدَمِ، فأتْقَنَه وجعَلَه في أحسَنِ هَيئةٍ مُناسِبةٍ له.
كما قال تعالى: الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ [الانفطار: 7].

وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3).

أي: والَّذي قدَّرَ مَقاديرَ الخلائِقِ في ذَواتِها وصِفاتِها وأحوالِها، فهدى كُلَّ مَخلوقٍ لتَحصيلِ مَصالِحِه، وألهَمَه استِعمالَ قوَّتِه وأعضائِه وفِكْرِه في ذلك.

كما قال الله تعالى: وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا [النحل: 78].

وقال سُبحانَه: الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى [طه: 50].

وقال عزَّ وجَلَّ: وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا [الفرقان: 2].

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (20/15)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (16/139، 140)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (1/84)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (2/35، 36)، ((تفسير ابن كثير)) (8/379)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (21/392)، ((تفسير السعدي)) (ص: 920)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/276، 277). ومِمَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: القرطبيُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابن القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السَّابقة. وقال الفرَّاءُ: (قَدَّرَ خلْقَه فَهَدَى الذَّكرَ لِمَأْتى الأنثى مِن البهائمِ. ويُقالُ: قدَّرَ فهدى وأضَلَّ، فاكتفى مِن ذِكرِ الضَّلالِ بذِكرِ الهدى؛ لكثرةِ ما يكونُ معه). ((معاني القرآن)) (3/256).

وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4).

<u>مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:</u>

لَمَّا كانت دلائِلُ التَّوحيدِ تارةً بالنَّفْسِ وتارةً بالآفاقِ، ونَبَّه بآياتِ النَّفْسِ، فلم يَبْقَ إلَّا آياتُ الآفاقِ، وكان النَّباتُ مِن آياتِها أدَلَّ المخلوقاتِ على البَعثِ؛ قال :

وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4).

أي: والَّذي أخرَجَ مِنَ الأرضِ النَّباتَ الأخضَرَ .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/312)، ((الوسيط)) للواحدي (4/470)، ((تفسير الرازي)) (31/129)، ((تفسير ابن كثير)) (8/379)، ((تفسير السعدي)) (ص: 920)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/277، 278). وقد جَعَل بَعضُ المُفَسِّرينَ المرعى خاصًّا بالأنعامِ. ومنهم: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ جُزَي، وأبو السعود، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/ 312)، ((تفسير السمعاني)) (6/208)، ((تفسير البيضاوي)) (5/305)، ((تفسير النسفي)) (3/630)، ((تفسير ابن جزي)) (2/474)، ((تفسير أبي السعود)) (9/144)، ((تفسير القاسمي)) (9/455)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/277، 278). ومنهم مَن جعله عامًّا للنَّاسِ والحيواناتِ، وهو ظاهرُ اختيارِ الرازيِّ، وابنِ كثير، واختاره السعديُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (31/129)، ((تفسير ابن كثير)) (8/379)، ((تفسير السعدي)) (ص: 920)

فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (5).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان إيباسُه وتَسويدُه بَعْدَ اخضِرارِه ونُمُوِّه: في غايةِ الدَّلالةِ على تمامِ القُدرةِ وكَمالِ الاختيارِ، بمُعاقَبةِ الأضْدادِ على الذَّاتِ الواحِدةِ؛ قال تعالى: فَجَعَلَهُ أي: بَعْدَ أطوارٍ مِن زَمَنِ إخراجِه غُثَاءً أَحْوَى .

فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (5).

أي: فجَعَلَ اللهُ ذلك المَرعى يابِسًا، وجعَلَ لَونَه قَريبًا مِنَ السَّوادِ بَعْدَ أن كان مُخضَرًّا ورَطْبًا .

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَه تعالى بالتَّسبيحِ، وكان التَّسبيحُ لا يَتِمُّ إلَّا بقراءةِ ما أُنزِلَ عليه مِنَ القُرآنِ، وكان يتذكَّرُ في نَفْسِه مَخافةَ أن يَنْسى؛ فأزال عنه ذلك، وبَشَّرَه بأنَّه تعالى يُقرِئُه، وأنَّه لا يَنسى، واستثنى ما شاء أن يُنسِيَه لمصلحةٍ كالنَّسخِ وغيرِه .

سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6).

أي: سنُلْهِمُك -يا محمَّدُ- قِراءةَ القُرآنِ رَغْمَ كَونِك أُمِّيًّا لا تَقرَأُ ولا تَكتُبُ، وتحفَظُه في صَدْرِك، فلا تَنْساه .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/315، 316)، ((الوسيط)) للواحدي (4/470)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (21/395)، ((تفسير السعدي)) (ص: 921). قال الواحدي: (قال المفَسِّرونَ: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا نَزَل عليه القُرآنُ أكثَرَ تحريكَ لِسانِه؛ مَخافةَ أن يَنساه، وكان لا

يَفرُغُ جِبريلُ مِن آخِرِ الوَحيِ حتَّى يتكَلَّمَ هو بأوَّلِه؛ مَخافةَ النِّسيانِ، فقال الله تعالى: سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى، وهذا كقَولِه: وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ [طه: 114] الآيةَ، وكقَولِه: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ [القيامة: 16] الآيةَ). ((الوسيط)) (4/470). وقال القرطبي: (هذه بُشْرى مِن الله تعالى؛ بشَّرَه بأنْ أعطاه آيةً بَيِّنةً، وهي أن يَقرأَ عليه جِبريلُ ما يقرأُ عليه مِن الوَحيِ، وهو أُمِّيٌّ لا يَكتُبُ ولا يَقرَأُ، فيَحفَظُه ولا يَنساه). ((تفسير القرطبي)) (20/18). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (5/315، 316)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/279، 280).

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7).

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ.

أي: إلَّا ما شاء اللهُ أن يُنسِيَكه مِن القُرآنِ -يا محمَّدُ- وَفْقَ ما تَقتَضيه حِكْمتُه البالِغةُ .

إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى.

أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ العَلانيَةَ والسِّرَّ .

كما قال تعالى: وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى [طه: 7].

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/316)، ((الوسيط)) للواحدي (4/470)، ((تفسير ابن كثير)) (8/379)، ((تفسير السعدي)) (ص: 921).

قال ابن الجوزي: (قوله عزَّ وجلَّ: إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ فيه ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: إلَّا ما شاء اللهُ أن يَنسَخَه فتَنْساه. قاله الحسَنُ، وقَتادةُ. والثَّاني: إلَّا ما شاء

اللهُ أن تَنساه ثمَّ تَذكُرَه بعدُ. حكاه الزَّجَّاجُ. والثَّالثُ: أنَّه استِثناءٌ لا يقَعُ قال الفرَّاءُ: لم يَشَأْ أن يَنسى شيئًا، فإنَّما هو كقولِه تعالى: خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ [هود: 107، 108]، ولا يَشاءُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (4/432). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (5/316)، ((معاني القرآن)) للفراء (3/ 256). ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والخازن، وأبو السعود، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (4/669)، ((تفسير ابن جرير)) (24/316)، ((تفسير السمرقندي)) (3/571)، ((الوسيط)) للواحدي (4/470)، ((تفسير السمعاني)) (6/209)، ((تفسير البغوي)) (5/242)، ((تفسير الخازن)) (4/417)، ((تفسير أبي السعود)) (9/144)، ((تفسير العليمي)) (7/341). وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (23/439)، ((تفسير ابن عطية)) (5/469). وممَّن جمَع بيْن القولَينِ الأوَّلِ والثَّاني -أي: أنَّ النِّسيانَ بالنَّسخِ، أو ما يَعرِضُ مِن نِسيانٍ مؤقَّتٍ ثمَّ يتذَكَّرُها: ابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (30/280)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 162). قال ابنُ عطية: (نِسيانُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممتَنِعٌ فيما أُمِرَ بتبليغِه؛ إذ هو معصومٌ، فإذا بَلَّغَه ووُعِيَ عنه، فالنِّسيانُ جائِزٌ على أن يتذكَّرَ بعدَ ذلك، وعلى أن يَسُنَّ، أو على النَّسْخِ). ((تفسير ابن عطية)) (5/469). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (21/396). قال أبو حيَّان: (مفهومُ الآيةِ في غايةِ الظُّهورِ، وقد تعسَّفوا في فَهمِها. والمعنى أنَّه تعالى أخبَر أنَّه سيُقرِئُه، وأنَّه لا يَنسى إلَّا ما شاء

اللهُ، فإنَّه يَنْساه؛ إمَّا النَّسخُ، وإما أن يَسُنَّ، وإمَّا على أن يتذَكَّرَ. وهو صلَّى الله عليه وسلَّم معصومٌ مِن النِّسيانِ فيما أُمِر بتبليغِه، فإن وقَع نِسيانٌ فيكونُ على وجْهٍ مِن الوُجوهِ الثَّلاثةِ). ((تفسير أبي حيان)) (10/456). مما يدلُّ على النَّسخِ قولُه تبارك وتعالى: مَا نَنْسَخْ مِنْ آَيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا [البقرة: 106]. ومما يدلُّ على الثاني ما ورد عن المُسَوَّرِ بنِ يَزيدَ المالِكيِّ رضيَ الله عنه، قال:((شَهِدْتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ في الصَّلاةِ، فترَكَ شيئًا لم يَقرَأْه، فقال له رجُلٌ: يا رسولَ الله، ترَكْتَ آيةَ كذا وكذا، فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: هَلَّا أَذْكَرْتَنِيها)). أخرجه أبو داودَ (907)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (2241)، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (907)، وحسَّنه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (907). ومما يدلُّ على الثالثِ وهو التَّذكُّرُ بعدَ النسيانِ ما ورَد عن عائشةَ رضيَ الله عنها، قالت: ((سَمِعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلًا يَقرأُ في سورةٍ باللَّيلِ، فقال: يَرْحَمُه اللهُ، لقدْ أَذْكَرني كذا وكذا، آيةً كنتُ أُنْسِيتُها مِن سورةِ كذا وكذا)). أخرجه البخاريُّ (5038) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (788). وممَّن ذهب إلى القولِ الثَّالثِ: الفرَّاءُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (3/256). وعن مجاهدٍ والكَلْبيِّ: أنَّ اللهَ أنزَل: سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى، فلمْ يَنْسَ النَّبيُّ بعْدَ ذلك شيئًا. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (5/242). قال أبو حيَّانَ: (وقال الفرَّاءُ وجماعةٌ: هذا استثناءٌ صِلةٌ في الكلامِ على سُنَّةِ الله تعالى في الاستثناءِ، وليس ثَمَّ شيءٌ أُبيحَ استثناؤُه. وأخَذ الزمخشريُّ هذا القولَ فقال: وقال: إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، والغرضُ نفْيُ النِّسيانِ رأسًا، كما يقولُ الرَّجُلُ لصاحِبِه: أنت سَهِيمِي فيما أَملِكُ إلَّا ما شاء الله، ولا يَقصِدُ استثناءَ شيءٍ، وهو مِن

استعمالِ القِلَّةِ في معنى النَّفيِ. انتهى. وقولُ الفرَّاءِ والزمخشريِّ يجعلُ الاستثناءَ كلا استثناءٍ، وهذا لا يَنبغي أن يكونَ في كلامِ الله تعالى، بل ولا في كلامٍ فصيحٍ. وكذلك القولُ بأنَّ «لا» في فَلَا تَنْسَى للنَّهيِ، والألِفَ ثابتةٌ لأجْلِ الفاصِلةِ، وهذا قولٌ ضعيفٌ). ((تفسير أبي حيان)) (10/456). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (4/738)

وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8).

أي: ونشرعُ لك -يا محمَّدُ- شرعًا سهلًا سَمحًا مستقيمًا عَدلًا، ونُسهِّلُ عليك أفعالَ الخَيرِ وأقوالَه، ونُوَفِّقُك للطَّريقةِ اليُسرى في كلِّ أمرٍ مِن أمورِ الدِّينِ والدُّنيا .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/317)، ((تفسير القرطبي)) (20/19)، ((تفسير ابن كثير)) (8/380)، ((تفسير السعدي)) (ص: 921)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/282). قال الشوكاني: (قال مقاتلٌ: أي: نُهَوِّنُ عليك عمَلَ الجنَّةِ. وقيل: نُوَفِّقُك للطَّريقةِ الَّتي هي أيسَرُ وأسهَلُ. وقيل: للشَّريعةِ اليُسرى، وهي الحَنيفيَّةُ السَّهلةُ. وقيل: نُهَوِّنُ عليك الوحيَ حتَّى تَحفظَه وتَعمَلَ له. والأَولى حملُ الآيةِ على العُمومِ، أي: نُوَفِّقُك للطَّريقةِ اليُسرى في الدِّينِ والدُّنيا في كلِّ أمرٍ مِن أُمورِهما الَّتي تتوجَّهُ إليك). ((تفسير الشوكاني)) (5/515). وقال البِقاعي: (وَنُيَسِّرُكَ أي: نجعَلُك أنت مُهَيَّأً مُسَهَّلًا مُلَيَّنًا مُوفَّقًا لِلْيُسْرَى أي: في حِفظِ الوَحيِ وتَدَبُّرِه، وغيرِ ذلك مِنَ الطَّرائِقِ والحالاتِ كُلِّها الَّتي هي ليِّنةٌ سَهلةٌ خَفيفةٌ، كما أشار إليه قَولُه:

«كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له»؛ ولهذا لم يَقُلْ: ونُيَسِّرُ لك؛ لأنَّه هو مطبوعٌ على حُبِّها). ((نظم الدرر)) (21/397).

<u>الفوائد العلمية واللطائف:</u>

1- في قَولِه تعالى: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى تنبيهٌ على استِحقاقِ اللهِ تعالى التَّنزيهَ مِن كلِّ نَقصٍ .

2- في قَولِه تعالى: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى دَلالةٌ على عُلُوِّ اللهِ تعالى ؛ فالأعلى مفهومٌ في اللُّغةِ أنَّه أعلى كُلِّ شَيءٍ، وفَوقَ كُلِّ شَيءٍ، واللهُ قد وَصَفَ نَفْسَه في غيرِ مَوضِعٍ مِن تَنزيلِه ووَحْيِه، وأعلَمَنا أنَّه الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ [البقرة: 255] [الشورى: 4]، أفليس العَلِيُّ -يا ذَوِي الحِجَا- ما يكونُ عاليًا، لا كما تَزعُمُ المعَطِّلةُ الجَهميَّةُ أنَّه أعلى وأسفَلُ ووسَطٌ، ومع كُلِّ شَيءٍ، وفي كُلِّ مَوضِعٍ مِن أرضٍ وسماءٍ، وفي أجوافِ جميعِ الحيوانِ! ولو تدَبَّروا الآيةَ مِن كتابِ اللهِ ووفَّقَهم اللهُ لفَهْمِها، لعَقَلوا أنَّهم جُهَّالٌ لا يَفهَمونَ ما يقولونَ، وبان لهم جَهلُ أنفُسِهم، وخَطَأُ مَقالتِهم .

3- في قَولِه تعالى: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى سؤالٌ: ما الفائدةُ في دُخولِ الباءِ في قَولِه: فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ [الواقعة: 74]، ولَمْ تَدْخُلْ في قَولِه هنا: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى؟

الجوابُ: التَّسبيحُ يُرادُ به التَّنزيهُ والذِّكْرُ المُجَرَّدُ دونَ معنًى آخَرَ، ويرادُ به ذلك مع الصَّلاةِ، وهو ذِكْرٌ وتنزيهٌ مع عَمَلٍ؛ ولهذا تُسَمَّى الصَّلاةُ تسبيحًا، فإذا أُريدَ التَّسبيحُ المُجَرَّدُ فلا معنَى للباءِ؛ لأنَّه لا يَتعَدَّى بحَرفِ جَرٍّ؛ فلا

تقولُ: سَبَّحْتُ باللهِ، وإذا أَرَدْتَ المَقْرونَ بالفِعلِ -وهو الصَّلاةُ- أَدْخَلتَ الباءَ؛ تنبيهًا على ذلك المرادِ؛ كأنَّك قلتَ: سَبِّحْ مُفتَتِحًا باسمِ ربِّك، أو ناطِقًا باسمِ ربِّك، كما تقولُ: صَلِّ مُفتَتِحًا أو ناطِقًا باسمِه؛ ولهذا السِّرِّ -واللهُ أعلَمُ- دخلتِ اللَّامُ في قَولِه تعالى: سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [الحديد: 1]، والمرادُ: التَّسبيحُ الَّذي هو السُّجودُ والخُضوعُ والطَّاعةُ، ولَمْ يَقُلْ في موضِعٍ: «سَبَّحَ اللهَ ما في السَّمَواتِ والأرضِ» كما قال: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [الرعد: 15]، وتأمَّلْ قولَه تعالى: إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ [الأعراف: 206]، كيف قال: وَيُسَبِّحُونَهُ لَمَّا ذَكَرَ السُّجودَ باسمِه الخاصِّ؛ فصار التَّسبيحُ ذِكْرَهم له، وتنزيهَهم إيَّاه .

4- قال تعالى: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى أفادَتْ تَعديةُ فِعلِ الأمْرِ بالتَّسبيحِ هنا إلى اسمٍ أنَّ المأمورَ به قولٌ دالٌّ على تَنزيهِ اللهِ بطَريقةِ إجراءِ الأخبارِ الطَّيِّبةِ، أو التَّوصيفِ بالأوصافِ المقدَّسةِ لإثباتِها إلى ما يدُلُّ على ذاتِه تعالَى مِن الأسماءِ والمَعاني. ولَمَّا كان أقوالًا كانت مُتعلِّقةً باسمِ اللهِ باعتبارِ دَلالتِه على الذَّاتِ، فالمأمورُ به إجراءُ الأخبارِ الشَّريفةِ والصِّفاتِ الرَّفيعةِ على الأسماءِ الدَّالَّةِ على اللهِ تعالَى مِن أعلامٍ وصِفاتٍ ونحْوِها، وذلك آيِلٌ إلى تَنزيهِ المسمَّى بتلك الأسماءِ، فتَسبيحُ اسمِ اللهِ النُّطقُ بتَنزيهِه بذِكْرٍ يَليقُ بجَلالِه مِن العقائدِ والأعمالِ؛ كالسُّجودِ والحمْدِ، ويَشملُ ذلك استِحضارَ النَّاطقِ بألفاظِ التَّسبيحِ مَعانيَ تلك الألفاظِ؛ إذ المقصودُ مِن الكلامِ معْناهُ، وبتَظاهُرِ النُّطقِ مع استحضارِ المعْنى يَتكرَّرُ المعْنى على ذِهنِ المتكلِّمِ، ويَتجدَّدُ ما في نفْسِه مِن تَعظيمٍ للهِ تعالَى، وأمَّا تَفكُّرُ العبدِ في عَظَمةِ اللهِ

تعالَى وتَرديدُ تَنزيهِه في ذِهنِه، فهو تَسبيحٌ لِذَاتِ اللهِ ومُسمَّى اسمِه، ولا يُسمَّى تَسبيحَ اسمِ اللهِ؛ لأنَّ ذلك لا يَجْري على لَفظٍ مِن أسماءِ اللهِ تعالَى، فهذا تَسبيحُ ذاتِ اللهِ، وليس تَسبيحًا لاسمِه، فهذا مِلاكُ التَّفرقةِ بيْنَ تَعلُّقِ لَفظِ التَّسبيحِ بلَفظِ اسمِ اللهِ نحْو: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ، وبيْن تَعلُّقِه بدُونِ اسمٍ نحْو: وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ [الإنسان: 26]، أو قُلْنا: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ [الحشر: 23] إلى آخِرِ السُّورةِ، كان ذلك تَسبيحًا لاسمِه تعالَى، وإذا نَفَيْنا الإلهيَّةَ عن الأصنامِ لأنَّها لا تَخلُقُ، كان ذلك تَسبيحًا لِذاتِ اللهِ لا لاسْمِه؛ لأنَّ اسمَه لم يَجْرِ عليه في هذا الكلامِ إخبارٌ ولا تَوصيفٌ، فهذا مَناطُ الفرْقِ بيْن استعمالِ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ واستعمالِ وَسَبِّحْهُ، ومآلُ الإطلاقَينِ في المعْنى واحدٌ؛ لأنَّ كِلا الإطلاقَينِ مُرادٌ به الإرشادُ إلى مَعرفةِ أنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عن النَّقائصِ .

5- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ضلالُ مَن سَلَبُوا أسماءَ اللهِ تعالى معانيَها مِن أهلِ التَّعطيلِ، وقالوا: إنَّ اللهَ تعالى سميعٌ بلا سَمْعٍ، وبصيرٌ بلا بَصَرٍ، وعزيزٌ بلا عِزَّةٍ، وهكذا! وعَلَّلُوا ذلك بأنَّ ثبوتَ الصِّفاتِ يَستَلْزِمُ تَعَدُّدَ القُدَماءِ؛ ففي هذه الآياتِ الكريمةِ أوصافٌ كثيرةٌ لموصوفٍ واحدٍ؛ ولَمْ يَلْزَمْ مِن ثبوتِها تَعَدُّدُ القُدَماءِ !

6- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، في قَولِه تعالى: الْأَعْلَى أنَّ مَعرِفتَه سُبحانَه وعِلْمَه أكبرُ العُلومِ وأعلاها؛ ووجْهُه: أنَّ العِلْمَ مُطابِقٌ

للمَعلومِ ، والعِلمُ الأعلى هو العِلمُ بالأعلى؛ فهو رَبُّ كلِّ ما سِواه، فهو الأصلُ، فكذلك العِلمُ به سَيِّدُ جميعِ العُلومِ، وهو أصلٌ لها .

7- قال اللهُ تعالى: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى اعلَمْ أنَّ الاسْتِدلالَ بالخَلْقِ والهِدايةِ هي الطَّريقةُ المعتَمَدةُ عندَ أكابِرِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، والدَّليلُ عليه ما حكى اللهُ تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ أنَّه قال: الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ [الشعراء: 78]، وحكى عن فِرعَونَ أنَّه لَمَّا قال لموسى وهارونَ عليهما السَّلامُ: فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى [طه: 49]؟ قال موسى عليه السَّلامُ: رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى [طه: 50]، وأمَّا محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فإنَّه تعالى أوَّلُ ما أنزَلَ عليه هو قَولُه: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ [العلق: 1-2]، هذا إشارةٌ إلى الخَلْقِ، ثمَّ قال: اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ [العلق: 3-4]، وهذا إشارةٌ إلى الهدايةِ، ثمَّ إنَّه تعالى أعاد ذِكْرَ تلك الحُجَّةِ في هذه السُّورةِ، فقال: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى، وإنَّما وَقَع الاستِدلالُ بهذه الطريقةِ كثيرًا؛ لأنَّ العَجائِبَ والغرائِبَ في هذه الطريقةِ أكثَرُ، ومُشاهَدةَ الإنسانِ لها واطِّلاعَه عليها أتَمُّ؛ فلا جَرَمَ كانت أقوى في الدَّلالةِ .

8- قال تعالى: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى فذكَرَ سُبحانَه أربعةَ أُمورٍ عامَّةً: الخَلقُ والتَّسويةُ والتَّقديرُ والهدايةُ، وجعَل التَّسويةَ مِن تمامِ الخَلقِ، والهدايةَ مِن تمامِ التَّقديرِ.

والتَّسويةُ شامِلةٌ لجميعِ مخلوقاتِه، وما يُوجَدُ مِن التَّفاوُتِ وعدمِ التَّسويةِ فهو راجعٌ إلى عدَمِ إعطاءِ التَّسويةِ للمَخلوقِ؛ فإنَّ التَّسويةَ أمرٌ وُجوديٌّ يتعلَّقُ بالتَّأثيرِ والإبداعِ، فما عُدِمَ منها فلِعَدَمِ إرادةِ الخالقِ للتَّسويةِ، وذلك أمرٌ عَدَميٌّ يكفي فيه عدمُ الإبداعِ والتَّأثيرِ؛ فتأمَّلْ ذلك فإنَّه يُزيلُ عنك الإشكالَ في قَولِه: مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ [الملك: 3]، فالتَّفاوُتُ حاصلٌ بسَبَبِ عدمِ مشيئةِ التَّسويةِ، كما أنَّ الجَهلَ والصَّمَمَ والعَمَى والخَرَسَ والبَكَمَ يَكْفي فيها عدمُ مشيئةِ خَلْقِها وإيجادِها، والمقصودُ أنَّ كلَّ مخلوقٍ فقد سوَّاه خالقُه سُبحانَه في مَرتَبةِ خَلْقِه، وإنْ فاتَتْه التَّسويةُ مِن وَجهٍ آخَرَ لَمْ يُخْلَقْ له .

9- في قَولِه تعالى: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى أُوثِرَ وَصْفا التَّسويةِ والهِدايةِ مِن بَينِ صِفاتِ الأفعالِ الَّتي هي نِعَمٌ على النَّاسِ، ودالَّةٌ على استحقاقِ اللهِ تعالى للتَّنزيهِ؛ لأنَّ في هذين الوَصفَينِ مُناسَبةً بما اشتمَلَت عليه مِن السُّورةِ؛ فإنَّ الَّذي يُسَوِّي خَلْقَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تسويةً تُلائِمُ ما خَلَقَه مِن أجْلِه مِن تحَمُّلِ أعباءِ الرِّسالةِ: لا يَفوتُه أن يُهَيِّئَه لحِفظِ ما يُوحيه إليه، وتيسيرِه عليه، وإعطائِه شَريعةً مُناسِبةً لذلك التَّيسيرِ؛ قال تعالى: سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى، وقال: وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى .

10- في قَولِه تعالى: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى بيانُ أنَّ اللهَ خَلَقَ الأشياءَ لحِكمةٍ وغايةٍ تَصِلُ إليها؛ فقد ذَكَرَ سُبحانَه خَلْقَه، وذَكَرَ هدايتَه وتعليمَه بعدَ الخَلْقِ؛ لأنَّ جميعَ المخلوقاتِ خُلِقَتْ لغايةٍ مقصودةٍ بها؛ فلا بُدَّ

أنْ تُهدَى إلى تلك الغايةِ الَّتي خُلِقَتْ لها، فلا تَتِمُّ مصلحتُها وما أُريدتْ له إلَّا بهدايتِها لغاياتِها .

11- في قَولِه تعالى: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى أنَّ العَطفَ قد يكونُ لتغايرِ الصِّفاتِ مع اتِّحادِ الذَّاتِ .

12- في قَولِه تعالى: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى أنَّ كلَّ أعمالِ النَّاسِ تابعةٌ لهَدْيِ اللهِ إيَّاهم .

13- في قَولِه تعالى: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى أنَّه سُبحانَه خَلَقَ الحيوانَ مُهتَدِيًا إلى طَلَبِ ما ينفَعُه، ودَفْعِ ما يَضُرُّه .

14- في قَولِه تعالى: سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى بِشارةٌ كَبيرةٌ مِنَ اللهِ لعَبْدِه ورَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أنَّ اللهَ سيُعَلِّمُه عِلمًا لا يَنساه .

15- في قَولِه تعالى: سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ أنَّه يجوزُ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَنسى ما لا يَتَعَلَّقُ بالإبلاغِ .

16- في قَولِه تعالى: سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى مُعجِزةٌ، وذلك مِن وَجهَينِ:
الأوَّلُ: أنَّه كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلًا أمِّيًّا؛ فحِفْظُه لهذا الكِتابِ المطَوَّلِ مِن غيرِ دِراسةٍ ولا تَكرارٍ ولا كتابةٍ: خارِقٌ للعادةِ؛ فيكونُ مُعجِزًا.

الثَّاني: أنَّ هذه السُّورةَ مِن أوائِلِ ما نَزَل بمكَّةَ؛ فهذا إخبارٌ عن أمرٍ عَجيبٍ غَريبٍ مخالفٍ للعادةِ سيقَعُ في المُستقبَلِ، وقد وَقَع، فكان هذا إخبارًا عن الغَيبِ؛ فيكونُ مُعجِزًا .

17- في قَولِه تعالى: سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ سُؤالٌ: أنَّ في الآياتِ دَلالةً على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَنْسى مِن القُرآنِ ما شاء اللهُ أن يَنْساه، وقد جاءت آياتٌ كَثيرةٌ تدُلُّ على حِفْظِ القُرآنِ مِنَ الضَّياعِ، كقَولِه تعالى: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآَنَهُ [القيامة: 16-17]، وقَولِه: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [الحجر: 9]!

الجوابُ: أنَّ القُرآنَ وإن كان محفوظًا مِنَ الضَّياعِ فإنَّ بَعْضَه يَنسَخُ بَعضًا، وإنساءُ اللهِ نَبيَّه بَعْضَ القُرآنِ في حُكمِ النَّسخِ، فإذا أنساه آيةً فكأنَّه نسَخَها، ولا بُدَّ أن يأتيَ بخَيرٍ منها أو مِثْلِها، كما صَرَّحَ به تعالى في قَولِه: مَا نَنْسَخْ مِنْ آَيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا [البقرة: 106]، وقَولِه تعالى: وَإِذَا بَدَّلْنَا آَيَةً مَكَانَ آَيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ [النحل: 101]، وأشار هنا لعِلْمِه بحِكمةِ النَّسخِ بقَولِه: إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى .

18- قال تعالى إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى مُناسَبةُ الجهْرِ وما يَخْفى أنَّ ما يَقرَؤُه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن القُرآنِ هو مِن قَبيلِ الجهْرِ، فاللهُ يَعلَمُه، وما يَنساهُ فيُسقِطُه مِن القُرآنِ هو مِن قَبيلِ الخَفيِّ، فيَعلَمُ اللهُ أنَّه اخْتَفى في حافظَتِه حِينَ القِراءةِ، فلم يَبرُزْ إلى النُّطقِ به .

19- قال اللهُ تعالى: إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى، ومِن ذلك أنَّه يَعلَمُ ما يُصلِحُ عِبادَه، أي: فلذلك يَشرَعُ ما أراد، ويَحكُمُ بما يُريدُ .

20- في قَولِه تعالى: وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى بِشارةٌ كَبيرةٌ؛ أنَّ اللهَ يُيَسِّرُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لليُسْرى في جميعِ أمورِه، ويَجعَلُ شَرْعَه ودِينَه يُسْرًا.

بلاغة الآيات:

1- قولُه تعالَى: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى

- قولُه: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الافتِتاحُ بأمْرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُسبِّحَ اسمَ ربِّه بالقَولِ، يُؤذِنُ بأنَّه سيُلْقي إليه عَقِبَه بِشارةً وخيرًا له، وذلك قولُه: سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ... [الأعلى: 6] الآياتِ؛ ففيه بَراعةُ استهلالٍ .

- وتَعريفُ اسْمَ بطَريقِ الإضافةِ إلى رَبِّكَ دُونَ تَعريفِه بالإضافةِ إلى عَلَمِ الجَلالةِ نحْوَ: سبِّحِ اسمَ اللهِ؛ لِما يُشعِرُ به وصْفُ (ربّ) مِن أنَّه الخالقُ المدَبِّرُ .

- وإضافةُ (ربّ) إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لتَشريفِه بهذه الإضافةِ، وأنْ يكونَ له حظٌّ زائدٌ على التَّكليفِ بالتَّسبيحِ .

- أُجرِيَ على لَفظِ رَبِّكَ صِفةُ الْأَعْلَى وما بعْدَها مِن الصِّلاتِ الدَّالَّةِ على تَصرُّفاتِ قُدرتِه؛ فهو مُستحِقٌّ للتَّنزيهِ لصِفاتِ ذاتِه ولصِفاتِ إنعامِه على النَّاسِ بخَلْقِهم في أحسَنِ تَقويمٍ، وهِدايتِهم، ورَزقِهم، ورَزقِ أنعامِهم؛ للإيماءِ إلى مُوجِبِ الأمرِ بتَسبيحِ اسْمِه بأنَّه حَقيقٌ بالتَّنزيهِ استِحقاقًا لِذاتِه، ولِوَصْفِه بصِفةِ أنَّه خالقُ المخلوقاتِ خلْقًا يدُلُّ على العِلمِ والحِكمةِ وإتْقانِ

الصُّنعِ، وبأنَّه أنعَمَ بالهُدى والرِّزقِ اللَّذَينِ بهما استِقامةُ حالِ البشَرِ في النَّفْسِ والجسَدِ. وأُوثِرَت الصِّفاتُ الثَّلاثُ الأُوَلُ؛ لِما لَها مِن المُناسَبةِ لغرَضِ السُّورةِ .

- والْأَعْلَى اسمُ تفضيلٍ، حُذِفَ المُفَضَّلُ عليه؛ ليَدُلَّ على العُمومِ، يعني: الأعلى على كُلِّ شَيءٍ .

- وإيثارُ وصْفِ الْأَعْلَى في هذه السُّورةِ؛ لأنَّها تَضمَّنَت التَّنويهَ بالقُرآنِ، والتَّثبيتَ على تَلقِّيه وما تَضمَّنه مِن التَّذكيرِ؛ وذلك لعُلوِّ شَأنِه؛ فهو مِن مُتعلَّقاتِ وصْفِ العُلوِّ الإلهيِّ؛ إذ هو كَلامُه .

- ومَفعولُ خَلَقَ مَحذوفٌ؛ فيَجوزُ أنْ يُقدَّرَ عامًّا، أي: خلَقَ كلَّ شَيءٍ، ويجوزُ أنْ يُقدَّرَ خاصًّا، أي: خلَقَ الإنسانَ، أو خلَقَ آدَمَ، بقَرينةِ قرْنِ فِعلِ خَلَقَ بفِعلِ (سوَّى)؛ قال تعالَى: فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي [الحجر: 29] الآيةَ .

- وعطْفُ جُملةِ فَسَوَّى بالفاءِ دونَ الواوِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَضمونَها هو المقصودُ مِن الصِّلةِ، وأنَّ ما قبْلَه تَوطئةٌ له؛ فالفاءُ مِن قولِه: فَسَوَّى للتَّفريعِ في الذِّكرِ باعتبارِ أنَّ الخلْقَ مُقدَّمٌ في اعتبارِ المُعتبِرِ على التَّسويةِ، وإنْ كان حُصولُ التَّسويةِ مُقارِنًا لحُصولِ الخلْقِ؛ ولكَونِ التَّسويةِ مُقارِنةً للخلْقِ عُطِفَ على فِعلِ خَلَقَ فِعلُ فَسَوَّى بالفاءِ المُفيدةِ التَّسبُّبَ، أي: تَرتُّبَ التَّسويةِ على الخلْقِ .

- وإعادةُ اسمِ المَوصولِ في قولِه: وَالَّذِي قَدَّرَ وقولِه: وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى، مع إغناءِ حرْفِ العطْفِ عن تَكريرِه؛ للاهتِمامِ بكلِّ صِلةٍ مِن هذه الصِّلاتِ وإثباتِها لمَدلولِ الموصولِ، وهذا مِن مُقتضَياتِ الإطنابِ .

- وأيضًا عطْفُ قولِه: فَهَدَى بالفاءِ مِثلُ عطْفِ فَسَوَّى، فعُطِفَ بالفاءِ دونَ الواوِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَضمونَه هو المقصودُ مِن الصِّلةِ، وأنَّ ما قبْلَه تَوطئةٌ له، وعَطْفُ فَهَدَى على قَدَّرَ عَطْفُ المُسبَّبِ على السَّببِ، أي: فهَدَى كلَّ مُقدَّرٍ إلى ما قُدِّرَ له .

- ومَفعولُ (هَدَى) مَحذوفٌ؛ لإفادةِ العُمومِ، وهو عامٌّ مَخصوصٌ بما فيه قابليَّةُ الهدْيِ، فهو مَخصوصٌ بذَواتِ الإدراكِ والإرادةِ، وهي أنواعُ الحيوانِ؛ فإنَّ الأنواعَ الَّتي خلقَها اللهُ وقدَّرَ نِظامَها ولم يُقدِّرْ لها الإدراكَ مِثل تقديرِ الإثمارِ للشَّجرِ، فذلك غيرُ مرادٍ مِن قولِه: فَهَدَى؛ لأنَّها مخلوقةٌ ومُقدَّرةٌ، ولكنَّها غيرُ مَهديَّةٍ لعدمِ صلاحِها للاهتداءِ. وإنْ جُعِلَ مَفعولُ خَلَقَ خاصًّا -وهو الإنسانُ- كان مَفعولُ قَدَّرَ على وِزانِه، أي: تَقديرُ كَمالِ قُوى الإنسانِ، وكانتِ الهدايةُ هِدايةً خاصَّةً، وهي دَلالةُ الإدراكِ والعقلِ .

- وقيل: في قولِه: فَهَدَى اكتِفاءٌ ، والتَّقديرُ: فهَدَى وأضَلَّ . وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى تَذكيرٌ بخَلْقِ جِنسِ النَّباتِ مِن شَجَرٍ وغيرِه، واقتُصِرَ على بَعضِ أنواعِه -وهو الكلأُ-؛ لأنَّه مَعاشُ السَّوائمِ الَّتي يَنتفِعُ النَّاسُ بها . وذلك على قولٍ.

- وإيثارُ كَلمةِ الْمَرْعَى دُونَ لَفظِ النَّباتِ؛ لِما يُشعِرُ به مادَّةُ الرَّعْيِ مِن نفْعِ الأنعامِ به، ونفْعِها للنَّاسِ الَّذين يَتَّخِذونها، مع رِعايةِ الفاصِلةِ . وذلك على قولٍ.

- قولُه: فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى الغُثاءُ: اليابسُ مِن النَّبْتِ، وأَحْوَى أي: المَوصوفَ بالحُوَّةِ، وهي مِن الألوانِ: سُمرةٌ تَقرُبُ مِن السَّوادِ، وهو صِفةٌ لـ غُثَاءً؛ لأنَّ الغُثاءَ يابسٌ، فتَصيرُ خُضرتُه حُوَّةً. وهذا الوصْفُ أَحْوَى

لاسْتِحْضارِ تَغيُّرِ لَونِه بعْدَ أنْ كان أخضَرَ يانعًا، وذلك دَليلٌ على تَصرُّفِه تعالَى بالإنشاءِ وبالإنهاءِ .

وقيل: أَحْوَى حالٌ مِن الْمَرْعَى، أي: أَخْرَجَ المَرعَى أحْوى، أي: للسَّوادِ مِن شِدَّةِ خُضرتِه ونَضارتِه لكَثْرةِ رِيِّه، وحَسُنَ تَأخيرُ أَحْوَى؛ مِن أجْلِ الفواصِلِ .

- وفي وَصْفِ إخراجِ اللهِ تعالَى المرْعَى وجَعْلِه غُثاءً أحْوى، مع ما سَبَقَه مِنَ الأوصافِ في سِياقِ المناسَبةِ بيْنَها وبيْن الغرَضِ المَسوقِ له الكَلامُ: إيماءٌ إلى تَمثيلِ حالِ القُرآنِ وهِدايتِه، وما اشتمَلَ عليه مِن الشَّريعةِ الَّتي تَنفَعُ الناسَ، بحالِ الغَيثِ الَّذي يَنبُتُ به المرْعى، فتَنتَفِعُ به الدَّوابُّ والأنعامُ، وإلى أنَّ هذه الشَّريعةَ تَكمُلُ ويَبلُغُ ما أرادَ اللهُ فيها كما يَكمُلُ المرْعى ويَبلُغُ نُضْجَه حينَ يَصيرُ غُثاءً أحْوى، وقد جاء بَيانُ هذا الإيماءِ وتَفصيلُه بقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ به مِن الهُدى والعِلمِ، كمَثَلِ الغَيثِ الكثيرِ أصاب أرضًا، فكان منها نَقيَّةٌ قَبِلَت الماءَ فأنْبَتَت الكَلأَ والعُشبَ الكثيرَ، وكانت منها أجادِبُ أمسَكَت الماءَ، فنَفَعَ اللهُ بها النَّاسَ، فشَرِبوا وسَقَوا وزَرَعوا ...)) الحديثَ .

ويجوزُ أنْ يكونَ المقصودُ مِن جُملةِ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى إدماجَ العِبرةِ بتَصاريفِ ما أَودَعَ اللهُ في المخلوقاتِ مِن مُختلِفِ الأطوارِ مِن الشَّيءِ إلى ضِدِّه؛ للتَّذكيرِ بالفَناءِ بعْدَ الحياةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ مُدَّةَ نَضارةِ الحَياةِ للأشياءِ تُشبِهُ المدَّةَ القصيرةَ، فجِيءَ بالحرْفِ الموضوعِ لعَطْفِ ما يَحصُلُ فيه حُكْمُ المعطوفِ بعْدَ زمَنٍ قَريبٍ مِن زمَنِ حُصولِ المعطوفِ عليه، وهو الفاءُ .

2- قولُه تعالَى: سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى * وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى

- قولُه: سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى الأمْرُ بالتَّسبيحِ في قولِه: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى [الأعلى: 1] بِشارةٌ إجماليَّةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بخَيرٍ يَحصُلُ له؛ فهذا مَوقعُ البَيانِ الصَّريحِ بوَعْدِه بأنَّه سيَعصِمُه مِن نِسيانِ ما يُقرِئُه، فيُبلِّغُه كما أُوحِيَ إليه، ويَحفَظُه مِن التَّفلُّتِ عليه، ولهذا تكونُ هذه الجُملةُ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ البِشارةَ تُنشِئُ في نفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَرقُّبًا لوعْدٍ بخَيرٍ يأْتيهِ، فبَشَّرَه بأنَّه سيَزيدُه مِن الوحْيِ، مع ما فُرِّعَ على قولِه: سَنُقْرِئُكَ مِن قولِه: فَلَا تَنْسَى. وإنَّما ابتُدِئَ بقولِه: سَنُقْرِئُكَ؛ تَمهيدًا للمَقصودِ الذي هو فَلَا تَنْسَى، وإدماجًا للإعلامِ بأنَّ القرآنَ في تَزايُدٍ مُستمِرٍّ، فإذا كان قد خاف مِن نِسيانِ بعضِ ما أُوحِيَ إليه على حِينِ قِلَّتِه، فإنَّه سيَتتابَعُ ويَتكاثَرُ، فلا يَخشَى نِسيانَه؛ فقد تَكفَّلَ له عدَمَ نِسيانِه مع تَزايُدِه .

- والسِّينُ في قولِه: سَنُقْرِئُكَ إمَّا للتَّأكيدِ، وإمَّا لأنَّ المرادَ إقراءُ ما أَوحَى اللهُ إليه حِينَئذٍ وما سيُوحِي إليه بعْدَ ذلك؛ فهو وَعْدٌ باستِمرارِ الوحْيِ في ضِمنِ الوعْدِ بالإقراءِ؛ فالسِّينُ عَلامةٌ على استِقبالِ مَدخولِها، وهي تُفيدُ تَأكيدَ حُصولِ الفِعلِ، وخاصَّةً إذا اقتَرَنَت بفِعلٍ حاصلٍ في وقْتِ التَّكلُّمِ؛ فإنَّها تَقْتضي أنَّه يَستمِرُّ ويَتجدَّدُ، وذلك تَأكيدٌ لحُصولِه، وإذ قد كان قولُه: سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إقراءً، فالسِّينُ دالَّةٌ على أنَّ الإقراءَ يَستمِرُّ ويَتجدَّدُ .

- والالْتفاتُ بضَميرِ المتكلِّمِ المعظِّمِ نفْسَه سَنُقْرِئُكَ؛ لأنَّ التَّكلُّمَ أنسَبُ بالإقبالِ على المبشَّرِ .

- قولُه: إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ فيه الالْتفاتُ إلى الاسمِ الجَليلِ؛ لتَربيةِ المهابةِ، والإيذانِ بدَورانِ المشيئةِ على عُنوانِ الأُلوهيَّةِ المسْتتبِعةِ لِسائرِ الصِّفاتِ .

- وجُملةُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى جُملةُ اعتِراضٍ، وهي تَعليلٌ لجُملةِ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ؛ فإنَّ مَضمونَ تلك الجُملةِ ضَمانُ اللهِ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حِفظَ القرآنِ مِن النَّقصِ العارضِ .

- قولُه: وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى عطْفٌ على سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى [الأعلى: 6] ، وهذا العطْفُ مِن عطْفِ الأعمِّ على الأخصِّ في المآلِ، وإنْ كان مَفهومُ الجُملةِ السَّابقةِ مُغايرًا لمَفهومِ التَّيسيرِ؛ لأنَّ مَفهومَها الحِفظُ والصِّيانةُ، ومَفهومَ المعطوفةِ تَيسيرُ الخَيرِ له .

- وتَعليقُ التَّيسيرِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، مع أنَّ الشَّائعَ تَعليقُه بالأُمورِ المُسَخَّرةِ للفاعلِ -كما في قولِه تعالَى: وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي [طه: 26] -؛ للإيذانِ بقوَّةِ تَمكينِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن اليُسْرى والتَّصرُّفِ فيها، بحيثُ صارَ ذلكَ مَلَكَةً راسخةً له، كأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ جُبِلَ عليها، كما في قولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((اعمَلُوا؛ فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له)) ، ومعْنى اللَّامِ في قولِه: لِلْيُسْرَى العِلَّةُ، أي: لأجْلِ اليُسرى، أي: لقَبولِها .

- ويجوزُ أنْ يُجعَلَ الكلامُ في قولِه: وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى جاريًا على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ بسُلوكِ أُسلوبِ القلْبِ ، وأنَّ الأصلَ: ونُيسِّرُ لك اليُسرى، أي: نَجعَلُها سَهلةً لك فلا تَشُقُّ عليك -وذلك على أنَّ الموصوفَ مَحذوفٌ، وتقديرُه: للشَّريعةِ. وفي وَصْفِ الشَّريعةِ -على هذا التَّقديرِ- بـ (اليُسْرى) إيماءٌ إلى استِتبابِ تَيسُّرِه لها بما أنَّها جُعِلَت يُسْرى، فلم يَبْقَ إلَّا حِفظُه مِن الموانعِ الَّتي يشُقُّ معها تَلقِّي اليُسرى، فاشتَمَلَ الكلامُ على تَيسيرَينِ: تَيسيرِ ما كُلِّفَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: جَعْلِه يَسيرًا مع وَفائِه بالمقصودِ منه، وتَيسيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للقيامِ بما كُلِّفَ به، ويُوجَّهُ العُدولُ عن مُقْتضى ظاهرِ النَّظمِ إلى ما جاء النَّظمُ عليه بأنَّ فيه

تَنزيلَ الشَّيءِ الميسَّرِ مَنزِلةَ الشَّيءِ الميسَّرِ له، والعكْس؛ للمُبالَغةِ في ثُبوتِ الفعلِ للمفعولِ على طَريقةِ القلْبِ المقبولِ، كقولِ العرَبِ: عرَضْتُ النَّاقةَ على الحَوضِ .

- واليُسرى: مُؤنَّثُ الأيسَرِ، وصِيغةُ (فُعلى) تدُلُّ على قوَّةِ الوصْفِ؛ لأنَّها مُؤنَّثُ (أفْعَلَ) .

****

ثم قال تعالى:

فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١ ٱلَّذِى يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ١٣ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥.

التفسير المأثور

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ٩)

٨٢٧٠٠ - قال مقاتل بن سليمان: (فَذَكِّرْ) يا محمد، يقول: ذكِّر بشهادة أن لا إله إلا الله (إنْ) يعني: قد (نَفَعَتِ الذِّكْرى) شهادة أن لا أن لا إله إلا الله الذين مِن قبلك (٨). (ز)

****

(سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ١١)

٨٢٧٠١ - عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- في قوله: (سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشى ويَتَجَنَّبُها الأَشْقى)، قال: واللهِ، ما خشي اللهَ عبدٌ قطّ إلا ذَكَّره، ولا يتنكّب عبدٌ هذا الذِّكْر زُهدًا فيه وبُغضًا لأهله إلا شَقيٌّ بَيِّنُ الشقاء (١) [٧١٣٣]. (١٥/ ٣٦٨)

[٧١٣٣] لم يذكر ابنُ جرير (٢٤/ ٣١٧) في معنى الآية سوى قول قتادة.

٨٢٧٠٢ - قال مقاتل بن سليمان: (سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشى) سيوحّد الله مَن يخشاه، ومَن يخشاه غفر له ولم يؤاخذه، (ويَتَجَنَّبُها الأَشْقى) ويتهاون بها -يعني: بالتوحيد- الأشقى (٢). (ز)

******

(الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ١٣)

٨٢٧٠٣ - قال مقاتل بن سليمان: (الَّذِي) قد سبق عِلْمُ الله فيه بالشقاء (الذي يَصْلى النّارَ الكُبْرى) وهي نار جهنم، (ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيها ولا يَحْيى) لا يموت في النار فيستريح، ولا يحيا حياة طيّبة، ولكنه في بلاء ما دام في النار، يأتيه الموت مِن كلّ مكان وما هو بميت، ويحترق كلّ يوم سبع مرات، ثم يُعاد إلى العذاب ليس له طعام إلا مِن لحمه، فذلك قوله: (ولا طَعامٌ إلّا مِن غِسْلِينٍ) [الحاقة: ٣٦]، يأكل النار وتأكله وهو في النار، لباسه النار، وعلى رأسه نار، وفي عُنقه نار، وفي كلّ مفصل منه سبعة ألوان من ألوان العذاب، لا يُرحم أبدًا، ولا يَشبع أبدًا، ولا يموت أبدًا، ولا

يعيش معيشة طيّبة أبدًا، الله عليه غضبان، والملائكة غضاب، وجهنم غضبانة (٣) [٧١٣٤]. (ز)

[٧١٣٤] نقل ابنُ عطية (٨/ ٥٩٣) أقوالًا في معنى: (النار الكبرى)، فقال: «قال الحسن: (النّارَ الكُبْرى): نار الآخرة، والصُّغرى: نار الدنيا. وقال بعض المفسرين: إنّ جميع نار الآخرة وإن كانت شديدة فهي تتفاضل، ففيها شيء أكبر من شيء. وقال الفراء: الكُبْرى هي السُّفلى مِن أطباق النار».

****

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ١٥)

نزول الآية، وتفسيرها

٨٢٧٠٤ - عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ، في قوله: (قَدْ أفْلَحَ مَن تَزَكّى)، قال: «مَن شهد أن لا إله إلا الله، وخلع الأنداد، وشهد أني رسول الله» (١). (١٥/ ٣٦٨)

أخرجه البزار -كما في كشف الأستار ٣/ ٨٠ (٢٢٨٤) -، والثعلبي ١٠/ ١٨٥ - ١٨٦، والواحدي في التفسير الوسيط ٤/ ٤٧١ (١٣٣٢).

قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٣٧ (١١٤٨٨): «رواه البزار عن شيخه عبّاد بن أحمد العرزمي، وهو متروك».

٨٢٧٠٥ - عن عمرو بن عوف، عن النبي ﷺ: أنه كان يأمر بزكاة الفطر قبل أن يُصلّي صلاة العيد، ويتلو هذه الآية: (قَدْ أفْلَحَ مَن تَزَكّى

وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى). وفي لفظ قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى)، قال: «هي زكاة الفطر» (٢). (١٥/ ٣٦٩)

أخرج البزار ٨/ ٣١٣ - ٣١٤ (٣٣٨٣) الشطر الأول منه، وابن خزيمة ٤/ ١٥٠ (٢٤٢٠) الشطر الثاني منه، والثعلبي ١٠/ ١٨٥ بنحوه. وفي أسانيدهم كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف.

قال ابن القيسراني في ذخيرة الحفاظ ٣/ ١٦٧١ (٣٧٥٠): «رواه كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جده. وكثير ضعيف». وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٢/ ٩٧ (١٦٥٤): «كثير بن عبد الله واهٍ». وقال الهيثمي في المجمع ٣/ ٨٠ (٤٤٣٠): «رواه البزار، وفيه كثير بن عبد الله، وهو ضعيف». وقال السيوطي: «بسند ضعيف». وقال الألباني في الضعيفة ٣/ ٢٧٥ (١١٣٨): «ضعيف جدًّا».

٨٢٧٠٦ - عن أبي سعيد الخُدري، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى)، ثم يقسِّم الفِطرة (صدقة الفطر) قبل أن يغدو إلى المُصلّى يوم الفِطر (٤). (١٥/ ٣٧٠)

٨٢٧٠٧ - كان عبد الله بن مسعود يقول: رحم الله امرءًا تَصدَّق ثم صلّى. ثم يقرأ هذه الآية (٥). (ز)

٨٢٧٠٨ - عن عبد الله بن عباس -من طريق علي- في قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى)، قال: من الشّرك (٦). (١٥/ ٣٦٨)

٨٢٧٠٩ - عن عبد الله بن عباس -من طريق عكرمة- في قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى)، قال: مَن قال: لا إله إلا الله (١). (١٥/ ٣٦٩)

٨٢٧١٠ - عن عطاء، قال: قلت لعبد الله بن عباس: أرأيت قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى) للفِطر؟ قال: لم أسمع بذلك، ولكن الزَّكاة كلّها. ثم عاودتُه فيها، فقال لي: والصدقات كلّها (٢). (١٥/ ٣٧٢)

٨٢٧١١ - عن عبد الله بن عمر -من طريق نافع- قال: إنما أُنَزِلَتْ هذه الآية في إخراج زكاة الفطر قبل صلاة العيد: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى) (٣). (١٥/ ٣٧٠)

٨٢٧١٢ - عن عبد الله بن عمر -من طريق قتادة- أنه كان يُقدّم صدقة الفطر حين يغدو، ثم يغدو وهو يتلو: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى) (٤). (١٥/ ٣٧٠)

٨٢٧١٣ - عن أبي سعيد الخُدري، (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى)، قال: أعطى صدقة الفِطر قبل أن يَخرج إلى العيد (٥) [٧١٣٥]. (١٥/ ٣٧٠)

[٧١٣٥] وجَّه ابنُ تيمية (٦/ ٥٠٣) قول أبي سعيد الخدري؟ وما في معناه بقوله: «ولم يريدوا أنّ الآية لم تتناول إلا هي، بل مقصودهم: أنّ مَن أعطى صدقة الفِطر وصَلّى صلاة العيد فقد تناولته وما بعدها، ولهذا كان يزيد بن حبيب كلما خرج إلى الصلاة خرج بصدقة، ويتصدّق بها قبل الصلاة، ولو لم يجد إلا بصلًا».

٨٢٧١٤ - عن واثلة بن الأسقع، (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى)، قال: إلقاء القمح قبل الصلاة يوم الفِطر في المُصلّى (٦). (١٥/ ٣٧١)

أخرجه الطبراني ٢٢/ ٩٨ (٢٣٩).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٨٠، ٧/ ١٣٧: «فيه محمد بن أشقر، وهو ضعيف».

٨٢٧١٥ - عن أبي العالية الرِّياحيّ، في قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى)، قال: نزلت في صدقة الفطر؛ تُزكِّي، ثم تُصلِّي (٧). (١٥/ ٣٧١)

٨٢٧١٦ - عن سعيد بن المسيّب -من طريق إسماعيل بن أُميّة- في قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى)، قال: زكاة الفِطر (١). (١٥/ ٣٧٠)

٨٢٧١٧ - عن سعيد بن المسيّب -من طريق إسماعيل بن أُميّة- قال: على أهل البوادي (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى) (٢). (ز)

أخرجه الطبراني ٢٢/ ٩٨ (٢٣٩).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٣/ ٨٠، ٧/ ١٣٧: «فيه محمد بن أشقر، وهو ضعيف»

٨٢٧١٨ - عن أبي الأَحْوَص -من طريق علي بن الأقمر- (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى)، قال: مَن رَضَخَ (٣). (١٥/ ٣٧٣)

أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ١١٣، وابن جرير ٢٤/ ٣١٩. والرضخ: العطية القليلة. النهاية ٢/ ٢٢٨.

٨٢٧١٩ - عن سعيد بن جُبَير: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى)، يعني: مِن ماله (٤). (١٥/ ٣٧٢)

٨٢٧٢٠ - عن إبراهيم النَّخْعي، قال: قدِّم الزكاة ما استطعتَ يوم الفِطر. ثم قرأ: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى) (٥). (١٥/ ٣٧١)

٨٢٧٢١ - عن عكرمة مولى ابن عباس -من طريق الحكم- في قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى)، قال: مَن قال: لا إله إلا الله (٦). (١٥/ ٣٦٨)

٨٢٧٢٢ - عن الحسن البصري -من طريق هشام- في قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى)، قال: مَن كان عمله زاكيًا (٧). (ز)

٨٢٧٢٣ - عن محمد بن سيرين، في قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى)، قال: أدّى صدقة الفِطر، ثم خرج فصَلّى بعدما أدّى (٨). (١٥/ ٣٧١)

٨٢٧٢٤ - عن عطاء، (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى)، قال: أدّى زكاة الفِطر (٩). (١٥/ ٣٧١)

٨٢٧٢٥ - عن عطاء، (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى)، قال: مَن آمن (١٠). (١٥/ ٣٦٩)

٨٢٧٢٦ - عن عطاء، (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى)، قال: مَن أكثر الاستغفار (١١). (١٥/ ٣٦٩)

٨٢٧٢٧ - عن ابن جُرَيْج، قال: قلتُ لعطاء [بن أبي رباح]: أرأيت قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى) للفِطر؟ قال: هي في الصدقة كلّها (١٢). (ز)

٨٢٧٢٨ - عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى)، قال: مَن أرضى خالِقَه مِن مالِه (١). (١٥/ ٣٧٢)

٨٢٧٢٩ - عن قتادة بن دعامة، (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى)، قال: تزكّى رجلٌ من ماله، وتزكّى رجل من خُلُقه (٢). (١٥/ ٣٧٢)

٨٢٧٣٠ - عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر- في قوله: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى)، قال: بعمل صالح (٣). (١٥/ ٣٦٩)

٨٢٧٣١ - قال مقاتل بن سليمان: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى) قد أفلح مَن أدّى الزكاة، وشهد أن لا إله إلا الله (٤). (ز)

-*****

(وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ١٥)

٨٢٧٣٢ - عن جابر بن عبد الله، عن النبي ﷺ، في قوله: (وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى)، قال: «هي الصلوات الخمس، والمحافظة عليها، والاهتمام بمواقيتها» (٥). (١٥/ ٣٦٨).

أخرجه البزار - كما في كشف الأستار ٣/ ٨٠ (٢٢٨٤) -، والثعلبي ١٠/ ١٨٥ - ١٨٦، والواحدي في التفسير الوسيط ٤/ ٤٧١ (١٣٣٢).

قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٣٧ (١١٤٨٨): «رواه البزار عن شيخه عبّاد بن أحمد العرزمي، وهو متروك».

٨٢٧٣٣ - عن عبد الله بن عباس -من طريق علي- في قوله: (وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ) قال: وحّد الله، (فَصَلّى) قال: الصلوات الخمس (٦). (١٥/ ٣٦٨)

٨٢٧٣٤ - عن أبي سعيد الخُدري، (وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى)، قال: خرج إلى العيد فصَلّى (٧). (١٥/ ٣٧٠)

٨٢٧٣٥ - قال مقاتل بن سليمان: (وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى) وصَلّى الصلوات الخمس (١) [٧١٣٦]. (ز)

[٧١٣٦] اختُلف في معنى: (وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ) على قولين: الأول: وحَّد الله. الثاني: نقله ابنُ جرير (٢٤/ ٣٢١) عن آخرين أنّ المعنى: «وذكر الله، ودعاه، ورغب إليه». ثم جمع بين القولين فقال: «أن يقال: وذكر الله

فوحَّده، ودعاه ورغب إليه؛ لأنّ كل ذلك من ذكر الله، ولم يَخْصُص الله تعالى من ذِكْره نوعًا دون نوعٍ».

واختُلف في معنى: (فَصَلّى) على قولين: الأول: فصَلّى الصلوات الخمس. الثاني: أنها صلاة العيد يوم الفطر.

ونقل ابنُ جرير (٢٤/ ٣٢١) عن آخرين أنّ «الصلاة هاهنا: الدعاء». ثم رجَّح «أن يقال: عُنِيَ بقوله: (فَصَلّى): الصلوات، وذكر الله فيها بالتحميد والتمجيد والدعاء». مستندًا لقول ابن عباس.

آثار متعلقة بالآية:

٨٢٧٣٦ - عن عبد الله بن مسعود -من طريق أبي الأَحْوَص- قال: إذا خرج أحدكم يريد الصلاة فلا عليه أن يتصدّق بشيء؛ لأنّ الله يقول: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى) (٢). (١٥/ ٣٧٣)

٨٢٧٣٧ - عن أبي خَلْدَة -من طريق مروان بن معاوية- قال: دخلتُ على أبي العالية، فقال لي: إذا غدوتَ غدًا إلى العيد فمُرّ بي. قال: فمررتُ به. فقال: هل طعمتَ شيئًا؟ قلت: نعم. قال: فأخبِرني ما فعلتَ بزكاتك؟ قلت: قد وجَّهتُها. قال: إنما أردتُك لهذا. ثم قرأ: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى). وقال: إنّ أهل المدينة لا يَرون صدقةً أفضل منها، ومِن سقاية الماء (٣). (١٥/ ٣٧١)

٨٢٧٣٨ - عن أبي الأَحْوَص [عوف بن مالك بن نضلة الأشجعي]-من طريق أبي إسحاق- قال: رحم الله امرأً تصدّق ثم صَلّى. ثم قرأ: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى) الآية. ولفظ ابن أبي شيبة: مَن استطاع أن يُقدِّم بين يدي صلاته صدقة فليفعل؛ فإنّ الله يقول. وذكر الآية (٤). (١٥/ ٣٧٢)

٨٢٧٣٩ - عن أبي الأَحْوَص [عوف بن مالك بن نضلة الأشجعي]-من طريق علي بن الأقمر- قال: لو أنّ الذي يتصدّق بالصدقة صَلّى ركعتين! ثم قرأ: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى) الآية (١). (١٥/ ٣٧٢)

٨٢٧٤٠ - عن جعفر بن برقان، قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: إنّ هذا الرجف شيء يعاقب الله به عباده، وقد كتب إلى أهل الأمصار أن يخرجوا يوم كذا وكذا في شهر كذا وكذا في ساعة كذا وكذا فاخرجوا، ومَن أراد منكم أن يتصدّق فليفعل؛ فإنّ الله تعالى قال: (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) (٢). (ز)

التفسير المحرر

فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥.

غريب الكلمات:

يَصْلَى: أي: يَرِدُ ويدخلُ، يقالُ: صَلِيَ النَّارَ وصَلِيَ بها صُلِيًّا، وصِلِيًّا، وصلًّى: قاسَى حَرَّها وشِدَّتَها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّار .

أَفْلَحَ: أي: فاز بالمطلوبِ، ونجا مِن المرهوبِ، وأصلُ الفلاحِ: البقاءُ والفوزُ والظَّفَرُ، وإدراكُ البُغيةِ، ثمَّ قيل لكلِّ مَن عقَل وحزُمَ وتكاملتْ فيه

خِلالُ الخَيرِ، والعربُ تقولُ لكلِّ مَن أصاب خيرًا: مُفلِحٌ، وأصلُ (فلح) هنا: يدُلُّ على فَوزٍ وبَقاء .

تَزَكَّى: أي: تَطَهَّر مِن الكُفرِ ومَعاصي اللهِ، وعَمِل بما أمَره اللهُ به، وأصلُ (زكي): يدُلُّ على طهارةٍ ونَماءٍ وزِيادةٍ .

المعنى الإجمالي:

يقولُ تعالى آمِرًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالتَّذكيرِ: فذَكِّرْ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ إذا رَجَوتَ نَفعًا في التَّذكيرِ، سيَتذَكَّرُ بالقُرآنِ ويَعتَبِرُ بمَوعِظَتِه مَن يَخْشى اللهَ تعالى، ويَبتَعِدُ الكافِرُ عن الذِّكرى، ولا ينتَفِعُ بها؛ الَّذي يَدخُلُ نارَ الآخِرةِ العُظمى، ويُقاسي شِدَّةَ حَرِّها، ثمَّ لا يَموتُ في النَّارِ ولا يَحْيا.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه حُسنَ عاقِبةِ المؤمنينَ، وأسبابَ ذلك، فيقولُ: قد نَجَح وفازَ مَن تطَهَّرَ مِن الكُفرِ والمعاصي، وذَكَر اللهَ سُبحانَه وتعالى؛ فأقبَلَ على الصَّلاةِ للهِ تعالى.

تفسير الآيات:

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تكَفَّل سُبحانَه بتيسيرِ جَميعِ مَصالحِ الدُّنيا والآخرةِ، أمَرَ بدَعوةِ الخَلْقِ إلى الحَقِّ .

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ أنَّه يُقرِئُه ويُيسِّرُه، أمَرَه بالتَّذكيرِ؛ إذ ثَمرةُ الإقراءِ هي انتفاعُه في ذاتِه، وانتفاعُ مَن أُرسِلَ إليهم .

فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9).

أي: فذَكِّرْ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ إذا رَجَوتَ نَفعًا في التَّذكيرِ .

كما قال تعالى: فَذَكِّرْ بِالْقُرْآَنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ [ق: 45] .

وقال سُبحانَه: وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ [الذاريات: 55].

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (8/380)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (21/398)، ((تفسير السعدي)) (ص: 921)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: 257-259). ومِمَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة. قال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه: فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى أمرٌ بتذكيرِ كُلِّ أحدٍ، فإن انتفَعَ كان تذَكُّرُه تامًّا نافِعًا، وإلَّا حَصَل أصلُ التَّذكيرِ الَّذي قامت به الحُجَّةُ، ودَلَّ ذلك على ذَمِّه واستِحقاقِه التَّوبيخَ، مع أنَّه سُبحانَه إنَّما قال: إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى، ولم يقُلْ: ذكِّرْ مَن تَنفَعُه الذِّكْرى فقط... ولم يقُلْ: سيَنتَفِعُ مَن يَخشى؛ فإنَّ النَّفعَ الحاصِلَ بالتَّذكيرِ أعَمُّ مِن تذَكُّرِ مَن يَخشى؛ فإنَّه إذا ذَكَّر قامت الحُجَّةُ على الجميعِ، والأشقى الَّذي تجَنَّبَها حصَلَ بتذكيرِه قيامُ الحُجَّةِ عليه، واستِحقاقُه لعذابِ الدُّنيا والآخِرةِ). ((مجموع الفتاوى)) (16/169). وقال الشنقيطي: (الَّذي يظهَرُ لمقَيِّدِ هذه الحروفِ -عفا الله عنه- هو بقاءُ الآيةِ الكريمةِ على ظاهِرِها، وأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَ أن يكَرِّرَ الذِّكرى تكريرًا تقومُ به حُجَّةُ اللهِ على خَلْقِه: مأمورٌ بالتَّذكيرِ عندَ ظَنِّ الفائدةِ... وبيانُ ذلك أنَّه تارةً يَعلمُه بإعلامِ اللهِ به، كما وقَعَ في أبي لهبٍ... وتارةً يَعلَمُ ذلك بقرينةِ الحالِ، بحيث يُبلِّغُ على أكمَلِ وَجهٍ، ويأتي

بالمعجزاتِ الواضِحةِ، فيَعلَمُ أنَّ بَعضَ الأشخاصِ عالمٌ بصِحَّةِ نبُوَّتِه، وأنَّه مُصِرٌّ على الكُفرِ؛ عِنادًا ولَجاجًا، فمِثلُ هذا لا يجِبُ تكريرُ الذِّكرى له دائمًا، بعدَ أن تكَرَّرَ عليه تكريرًا تلزَمُه به الحُجَّةُ). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: 257-259). ثمَّ قال الشنقيطي: (إنَّما اختَرْنا بقاءَ الآيةِ على ظاهِرِها مع أنَّ أكثرَ المفسِّرينَ على صَرفِها عن ظاهِرِها المُتبادرِ منها، وأنَّ معناها: فذكِّرْ مُطلقًا إن نفعَتِ الذِّكْرى وإن لم تنفَعْ؛ لأنَّنا نرى أنَّه لا يجوزُ صَرفُ كتابِ الله عن ظَواهِرِه المُتبادرةِ منه إلَّا لدليلٍ يجبُ الرُّجوعُ له). ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) (ص: 260). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (30/284، 285). وقيل: الكلامُ على الاكتفاءِ، والمعنى: إن نفعَتِ الذِّكْرى وإن لم تنفَعْ. وممَّن اختاره: الواحديُّ، ومكِّي، والبغوي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (4/470)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (12/8211)، ((تفسير البغوي)) (5/242)، ((تفسير العليمي)) (7/342)، ((تفسير الشوكاني)) (5/516). ونسَبَ أبو حيَّانَ وأبو السُّعودِ هذا القولَ إلى: الفرَّاءِ، والنَّحَّاسِ، والجُرْجانيِّ، والزهراويِّ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (10/457)، ((تفسير أبي السعود)) (9/146). ويُنظر أيضًا: ((إعراب القرآن)) للنحاس (5/127). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر ما يأتي في الفوائد.

سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَه بالتَّذكيرِ لكُلِّ أحدٍ قَسَّم النَّاسَ له إلى قِسمَينِ: قِسمٌ يَقبَلُ العلاجَ، وقِسمٌ لا يَقبَلُه؛ إعلامًا بأنَّه سُبحانَه وتعالى عالِمٌ بكُلٍّ مِنَ القِسمَينِ جملةً وأفرادًا على التَّعيينِ، ولم يَزَلْ عالِمًا بذلك، ولكِنَّه لم يُعَيِّنْ؛ ابتِلاءً منه لعبادِه؛ لتقومَ له الحُجَّةُ عليهم بما يتعارَفونَه بيْنَهم، وله الحُجَّةُ البالغةُ .

سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10).

أي: سيَتذَكَّرُ بالقُرآنِ ويَعتَبِرُ بمَوعِظَتِه مَن يَخْشى اللهَ، ويَخْشى عَذابَه .

كما قال تعالى: إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآَخِرَةِ [هود: 103] .

وقال سُبحانَه: وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ [غافر: 13] .

وقال اللهُ -عزَّ وجَلَّ- عن فِرعَونَ: فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى [النازعات: 25-26] .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/317)، ((الوسيط)) للواحدي (4/471)، ((تفسير القرطبي)) (20/20)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (16/174)، ((تفسير ابن كثير)) (8/380)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 165). قال ابنُ عطيَّة: (أخبَرَ تعالى أنَّه سيَذَّكَّرُ مَن يَخشى اللهَ والدَّارَ الآخرةَ، وهم العُلَماءُ والمؤمِنونَ؛ كلٌّ بقَدْرِ ما وُفِّقَ). ((تفسير ابن عطية)) (5/470). وقال البِقاعي: (مَنْ يَخْشَى أي: في جِبِلَّتِه نَوعَ خَشيةٍ، وهو السَّعيدُ لِما قُدِّرَ له في نَفْسِه مِن السَّعادةِ العُظمى لقَبولِ الحَنيفيَّةِ السَّمْحةِ، فيَذَّكَّرُ ما يَعلَمُ منها في نَفْسِه فيَتَّعِظُ؛ فإنَّ الخَشيةَ حامِلةٌ على كُلِّ خَيرٍ). ((نظم الدرر)) (21/399)

وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن تعالى مَن ينتَفِعُ بالذِّكرى؛ بَيَّن مَن لا ينتَفِعُ بها .

وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11).

أي: ويَبتَعِدُ الكافِرُ عن الذِّكْرى، ولا يَنتَفِعُ بها .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/317)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (21/399)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/285)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 165). قيل: المرادُ بالأشقى: الكافرُ المُصِرُّ على إنكارِ المَعادِ ونحوِه، الجازمُ بنَفيِ ذلك، وهو أشقى أنواعِ الكفَرةِ. وقيل: المرادُ به: الكافرُ المُتَوغِّلُ في عداوةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ كالوليدِ ابنِ المُغيرةِ، وعُتبةَ بنِ ربيعةَ. وقيل: المرادُ به: الكافرُ مُطلقًا؛ فإنَّه أشقى مِن الفاسِقِ. وقيل: المُفَضَّلُ عليه كفَرةُ سائرِ الأُمَمِ؛ فإنَّه حيث كان المؤمنُ مِن هذه الأُمَّةِ أسْعَدَ مِن مُؤْمِنيهم، كان الكافرُ منها أشقى مِن كافِريهم. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (15/320).

الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ وَصْفَه الَّذي أوجَبَ له العَمَلَ السَّيِّئَ؛ ذكَرَ جَزاءَه .

الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12).

أي: الَّذي يَدخُلُ نارَ الآخِرةِ العُظمى، فيُقاسي شِدَّةَ حَرِّها وآلامِها .

كما قال تعالى: فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى [الليل: 14-15] .

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نارُكم هذه الَّتي يُوقِدُ ابنُ آدَمَ: جُزءٌ مِن سَبعينَ جُزءًا مِن حَرِّ جَهنَّمَ! قالوا: واللهِ إن كانت لَكافيةً يا رسولَ اللهِ! قال: فإنَّها فُضِّلَت عليها بتِسعةٍ وسِتِّينَ جُزءًا، كُلُّها مِثْلُ حَرِّها)) .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/318)، ((الوسيط)) للواحدي (4/471)، ((تفسير القرطبي)) (20/21)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (21/400)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/ 286)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 165). مِمَّن قال بأنَّ الكُبْرى هي نارُ الآخرةِ؛ لأنَّها أكبَرُ مِن نارِ الدُّنيا: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والنسفي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (3/571)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (5/121)، ((الوسيط)) للواحدي (4/471)، ((تفسير البغوي)) (5/242)، ((تفسير ابن الجوزي)) (4/432)، ((تفسير النسفي)) (3/632)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 804)، ((تفسير العليمي)) (7/342)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 165). وقيل: المرادُ بالنَّارِ الكُبرى: الطَّبَقةُ السُّفْلى مِن أطباقِ النَّارِ. ومِمَّن ذهب إليه: الفَرَّاءُ، وأبو السعودِ، وهو ظاهرُ اختيارِ الألوسيِّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (3/256)، ((تفسير أبي السعود)) (9/146)، ((تفسير الألوسي)) (15/320). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (20/21).

ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (13).

أي: ثمَّ لا يَموتُ الكافِرُ في النَّارِ الكُبْرى؛ فيَستريحَ مِن عَذابِها، ولا يَحْيا حياةً نافِعةً وخالِصةً مِنَ الآلامِ !

كما قال الله تبارك وتعالى: إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا [طه: 74] .

وقال الله سُبحانَه وتعالى: وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ [إبراهيم: 17] .

وقال عزَّ وجَلَّ: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ [فاطر: 36] .

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أمَّا أهلُ النَّارِ الَّذين هم أهلُها فإنَّهم لا يَموتونَ فيها ولا يَحْيَونَ)) .

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (4/471)، ((تفسير القرطبي)) (20/21)، ((تفسير ابن كثير)) (8/380)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (21/402)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/286)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 166). ومِمَّن ذهب في الجُملةِ إلى هذا المعنى المذكور: الواحديُّ، والقرطبي، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة. وقيل: المعنى: أنَّ نَفْسَ أحَدِهم تصيرُ في حَلْقِه، فلا تخرُجُ؛ فيَموتَ، ولا ترجِعُ إلى مَوضِعِها مِن الجِسْمِ؛ فيَحْيا. ومِمَّن ذهب إليه: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/318).

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى وَعيدَ مَن أعرَضَ عن النَّظَرِ في دلائِلِ اللهِ تعالى؛ أتْبَعَه بالوَعدِ لضِدِّه .

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14).

أي: قد نَجَح وفازَ مَن تطَهَّرَ مِن الكُفرِ والمعاصي وسَيِّئِ الأخلاقِ، فآمَنَ وعَمِلَ الأعمالَ الصَّالحةَ الَّتي منها ذِكرُ اللهِ، والصَّلاةُ، والصَّدَقةُ .

كما قال تعالى: لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ [آل عمران: 164] .

وقال سُبحانَه: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ [المؤمنون: 1 - 4] .

وقال عزَّ وجَلَّ: وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [الشمس: 7 - 9] .

وعن زَيدِ بنِ أرقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((اللَّهُمَّ آتِ نَفْسي تَقْواها، وزَكِّها أنت خَيرُ مَن زكَّاها، أنت وَلِيُّها ومَولاها)) .

وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15).

أي: وذَكَر اللهَ سُبحانَه وتعالى بقلبِه ولسانِه؛ فأورَثَ له ذلك إقبالًا على الصَّلاةِ للهِ تعالى .

الفوائد التربوية:

1- في قَولِه تعالى: سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى أنَّ خشيةَ اللهِ تعالى تَستَلزِمُ طاعتَه؛ فالخائفُ مِن اللهِ ممتثِلٌ لأوامرِه، مُجتنِبٌ لنَواهيه؛ فقد أَخْبَرَ سُبحانَه أنَّ مَن يخشاه يَتَذَكَّرُ، والتَّذكُّرُ هنا مُستَلزِمٌ لعبادتِه .

2- في قَولِه تعالى: سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى، وقولِه: اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ [الشورى: 13] ، وقولِه: إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ [يونس: 9] أنَّ العَبدَ كُلَّما اتَّقى زاد هُداه، وكُلَّما اهتَدى زادتْ تَقواه .

3- في قَولِه تعالى: سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى أنَّ مَنْ آمَنَ بالآخرةِ وأَشْفَقَ منها فهو الَّذي يَنْتَفِعُ بالآياتِ والمواعِظِ .

4- في قَولِه تعالى: سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى أنَّ تَذَكُّرَ الوَعدِ والوعيدِ يُوجِبُ خَشيةَ اللهِ والحَذَرَ منه، ولا تنفَعُ الموعظةُ إلَّا لِمَنْ آمَنَ به، وخافه ورَجاه .

5- قَولُه تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى يعني: تَطَهَّرَ، ويَشملُ ذلك ظاهِرَه وباطِنَه، يَتَزَكَّى أوَّلًا: مِن الشِّركِ بالنِّسبةِ لمعامَلةِ اللهِ، فيَعبُدُ اللهَ مُخلِصًا له الدِّينَ، لا يُرائي، ولا يُسَمِّعُ، ولا يَطلُبُ جاهًا، ولا رِئاسةً فيما يَتَعَبَّدُ به للهِ عزَّ وجَلَّ، وإنَّما يريدُ بهذا وَجْهَ اللهِ تعالى، والدَّارَ الآخرةَ.

ثانيًا: تَزَكَّى في اتِّباعِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بحيثُ لا يَبْتَدِعُ في شريعتِه لا بقليلٍ ولا كثيرٍ، لا في الاعتقادِ ولا في الأقوالِ ولا في الأفعالِ، وهذا التَّزكِّي بالنِّسبةِ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -وهو اتِّباعُه مِن غيرِ ابتِداعٍ- لا ينطبقُ تمامًا إلَّا على طريقةِ السَّلَفِ الصَّالحِ؛ طريقةِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ الَّذين يؤمِنونَ بكُلِّ ما وَصَفَ اللهُ به نفْسَه في كتابِه، أو على لسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم؛ على طريقةِ السَّلَفِ الصَّالحِ، الَّذين لا يَبتَدِعونَ في العباداتِ القَوليَّةِ ولا في العباداتِ الفِعْليَّةِ شيئًا في دِينِ اللهِ، تَجِدُهم يَتَّبِعونَ ما جاء به الشَّرعُ، خِلافًا لِمَا يَصْنَعُه بعضُ المبتَدِعةِ في الأذكارِ المبتدَعةِ؛ إمَّا في نَوعِها، وإمَّا في كَيفيَّتِها وصِفَتِها، وإمَّا في أدائِها، كما يفعَلُه بعضُ أصحابِ الطُّرُقِ مِن الصُّوفيَّةِ وغيرِهم.
ثالثًا: تَزَكَّى بالنِّسبةِ لمُعامَلةِ الخَلْقِ، بحيثُ يُطَهِّرُ قلْبَه مِن الغِلِّ والحِقدِ على إخوانِه المسلِمينَ، فتجِدُه دائمًا طاهِرَ القَلبِ، يُحِبُّ لإخوانِه ما يُحِبُّ لنَفْسِه، لا يَرضى لأحَدٍ أنْ يَمَسَّه سُوءٌ، بل يَوَدُّ أنَّ جميعَ النَّاسِ سالِمونَ مِن كلِّ شَرٍّ، مُوَفَّقونَ لكُلِّ خَيرٍ .

<u>الفوائد العلمية واللطائف</u>:

1- قَولُه تعالى: فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى استُدِلَّ بظاهِرِ الآيةِ على أنَّه يُشتَرَطُ في وُجوبِ الأمرِ بالمعروفِ مَظِنَّةُ النَّفعِ به، فإنْ جَزَم بعدَمِ الفائدةِ فيه لم يجِبْ عليه .

2- قال تعالى: فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى مفهومُ الآيةِ أنَّه إنْ لم تنفَعِ الذِّكْرى؛ بأنْ كان التَّذكيرُ يَزيدُ في الشَّرِّ، أو يَنقُصُ مِنَ الخَيرِ: لم تكُنِ الذِّكرى

مأمورًا بها، بل مَنهِيًّا عنها؛ فالذِّكرى ينقَسِمُ النَّاسُ فيها قِسمَينِ: مُنتَفِعونَ وغيرُ مُنتفِعينَ؛ فأمَّا المُنتفعونَ فقد ذكَرَهم بقَولِه: سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى اللهَ تعالى؛ فإنَّ خَشيةَ اللهِ تعالى وعِلْمَه بأنْ سيُجازيه على أعمالِه توجِبُ للعَبدِ الانكفافَ عن المعاصِي، والسَّعْيَ في الخَيراتِ. وأمَّا غيرُ المنتَفِعينَ فذَكَرَهم بقَولِه: وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى، وهي النَّارُ الموقَدةُ، الَّتي تطَّلِعُ على الأفئِدةِ .

3- في قَولِه تعالى: فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى سؤالٌ: أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان مَبعوثًا إلى الكُلِّ، فيَجِبُ عليه أن يُذَكِّرَهم سواءٌ نفَعَتْهم الذِّكْرى أو لم تنفَعْهم ؛ فما المرادُ مِن تعليقِه على الشَّرطِ في قَولِه: إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى؟

وقد جاءت آياتٌ كثيرةٌ تدُلُّ على الأمرِ بالتَّذكيرِ مُطلقًا؛ كقولِه: فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى [الغاشية: 21] ، وقولِه: وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ [القمر: 17]. يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: 257). وقال الشنقيطي أيضًا: (تنبيهٌ: هذا الإشكالُ الَّذي في هذه الآيةِ إنَّما هو على قولِ مَن يقولُ باعتبارِ دليلِ الخِطابِ الَّذي هو مفهومُ المُخالَفةِ، وأمَّا على قولِ مَن لا يَعتبِرُ مفهومَ المُخالَفةِ شرطًا كان أو غيرَه -كأبي حنيفةَ- فلا إشكالَ في الآيةِ، وكذلك لا إشكالَ فيها على قولِ مَن لا يَعتبِرُ مفهومَ الشَّرطِ -كالباقِلَّانيِّ-، فتكونُ الآيةُ نصَّتْ على الأمرِ بالتَّذكيرِ عندَ مَظِنَّةِ النَّفعِ، وسكتَتْ عن حُكمِه عندَ عدمِ مَظنَّةِ النَّفعِ، فيُطلَبُ مِن دليلٍ آخَرَ، فلا تُعارِضُ الآيةُ الآياتِ الدَّالَّةَ على التَّذكيرِ مُطلقًا). ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) (ص: 260).

الجوابُ: أنَّ المعَلَّقَ على الشَّيءِ لا يَلزَمُ أن يكونَ عَدَمًا عندَ عَدَمِ ذلك الشَّيءِ، كقَولِه: وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا [النور: 33] ، ومنها قَولُه: وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ [البقرة: 172] ، وإذا عرَفْتَ هذا فإنَّهم ذكَروا لذِكْرِ هذا الشَّرطِ فوائِدَ:

إحداها: أنَّ مَن باشَرَ فِعلًا لغَرَضٍ فلا شَكَّ أنَّ الصُّورةَ الَّتي عُلِمَ فيها إفضاءُ تلك الوَسيلةِ إلى ذلك الغَرَضِ كان إلى ذلك الفِعلِ أوجَبَ مِن الصُّورةِ الَّتي عُلِمَ فيها عدمُ ذلك الإفضاءِ؛ فلذلك قال: إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى.

ثانيها: أنَّه تعالى ذكَرَ أشرَفَ الحالتَينِ، ونَبَّه على الأُخرى، كقَولِه: سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ [النحل: 81] ، والتَّقديرُ: «فذَكِّرْ إنْ نفعَتِ الذِّكْرى أو لم تنفَعْ»

.

قال ابن عثيمين: (إذا قُلْنا بالقَولِ الآخَرِ: أنَّ المعنى: سَواءٌ نَفَعَتْ أمْ لَمْ تَنْفَعْ، مِثلَما يُقالُ للإنسانِ: عَلِّمْ هذا إنْ كان يَنفَعُه العِلمُ، فالمعنى: كَرِّرْ عليه التَّعليمَ، وهذا أسلوبٌ معروفٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ؛ أنَّه يُقْصَدُ بالشَّرطِ الاستِمرارُ). ((لقاء الباب المفتوح)) (اللقاء رقْم: 156).

ثالثُها: أنَّ المرادَ منه: البَعثُ على الانتِفاعِ بالذِّكرى، كما يقولُ المرءُ لِغَيرِه إذا بَيَّنَ له الحَقَّ: قد أوضَحْتُ لك إنْ كُنتَ تَعقِلُ، فيكونُ مُرادُه البَعْثَ على القَبولِ والانتِفاعِ به.

رابعُها: أنَّ هذا يَجري مَجْرى تنبيهِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه لا تنفَعُهم الذِّكْرى، كما يُقالُ للرَّجُلِ: ادْعُ فُلانًا إنْ أجابَك، والمعنى: وما أراه يُجيبُك .

وقال ابن جُزَي: (فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى المرادُ بهذا الشَّرطِ توبيخُ الكفَّارِ الَّذين لا تَنفَعُهم الذِّكْرى، واستِبْعادُ تأثيرِ الذِّكْرى في قُلوبِهم، كقَولِك: قد أوصَيْتُك لو سَمِعتَ). ((تفسير ابن جزي)) (2/ 474)

خامِسُها: أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ دعاهم إلى اللهِ كثيرًا، وكُلَّما كانت دعوتُه أكثَرَ كان عُتُوُّهم أكثَرَ، وكان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يحتَرِقُ حَسرةً على ذلك، فقيل له: وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ [ق: 45] ؛ إذِ التَّذكيرُ العامُّ واجِبٌ في أوَّلِ الأمرِ، فأمَّا التَّكريرُ فلعَلَّه إنَّما يجِبُ عندَ رجاءِ حُصولِ المقصودِ؛ فلهذا المعنى قَيَّدَه بهذا الشَّرطِ .
يُنظر: ((تفسير الرازي)) (31/132). وقيل: معنى قَوْله: إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى إذْ نَفَعَتِ الذِّكْرى، مثل قَولِه تعالى: وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ [آل عمران: 175] ومَعْناه: إِذْ كُنْتُم مُؤمنين. وقيل: المعنى: ذكِّرْ بِكُلِّ حالٍ؛ فقد نَفَعَتِ الذِّكْرى، فهو تعليقٌ بمُتحقِّقٍ، والمعنى: إن نَفَعَتْ، وقد نَفَعتْ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (6/209). ونحو القولِ السَّابقِ قولُ مَن قال: إنَّ (إنْ) بمعنى «مَا»، أيْ: فذَكِّرْ ما نَفَعَتِ الذِّكْرى؛ لأنَّ الذِّكْرى نافِعةٌ بكُلِّ حالٍ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (5/516). قال ابنُ عثيمين بعدَ أن ذكَرَ الخِلافَ في معنى الآيةِ: (على كلِّ حالٍ نقولُ: لا بُدَّ مِن التَّذكيرِ، حتَّى وإن ظَنَنْتَ أنَّها لا تَنفَعُ؛ فإنَّها سوف تَنفَعُك أنت، وسوف يَعلَمُ النَّاسُ أنَّ هذا الشَّيءَ الَّذي ذكَّرْتَ عنه إمَّا واجبٌ وإمَّا حرامٌ، وإذا سكَتَّ والنَّاسُ يَفعَلونَ المُحَرَّمَ، قال النَّاسُ: لو كان هذا مُحَرَّمًا لذَكَّر به العلماءُ، أو لو كان هذا واجبًا لذكَّر به العلماءُ، فلا بُدَّ مِن التَّذكيرِ، ولا بدَّ مِن نشرِ الشَّريعةِ، سواءٌ نفعت أم لم تنفَعْ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 164). وقال

الشنقيطيُّ بعدَ أن اختار بقاءَ الآيةِ الكريمةِ على ظاهِرِها، وأنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَ أن يُكرِّرَ الذِّكْري تكريرًا تقومُ به حُجَّةُ الله على خَلقِه مأمورٌ بالتَّذكيرِ عندَ ظنِّ الفائدةِ، أمَّا إذا عَلِم عدمَ الفائدةِ فلا يُؤْمَرُ بشيءٍ هو عالمٌ أنَّه لا فائدةَ فيه؛ قال: (حاصلُ إيضاحِ هذا الجوابِ أنَّ الذِّكْرى تَشتَمِلُ على ثلاثِ حِكَمٍ: الأولى: خروجُ فاعِلِها مِن عُهدةِ الأمرِ بها. الثَّانيةُ: رجاء النَّفعِ لِمَن يُوعَظُ بها. وبيَّن اللهُ تعالى هاتَينِ الحِكمتَينِ بقولِه تعالى: قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ [الأعراف: 164] ، وبيَّن الأُولى منهما بقولِه تعالى: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ [الذاريات: 54]، وقولِه تعالى: إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ [الشورى: 48] ، ونحوِها مِن الآياتِ. وبيَّن الثَّانيةَ بقولِه: وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ [الذاريات: 55]. الثَّالثةُ: إقامةُ الحُجَّةِ على الخَلقِ، وبيَّنها تعالى بقولِه: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ [النساء: 165] ، وبقولِه: وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا الآيةَ [طه: 134] . فالنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا كرَّر الذِّكْرى حصلَتِ الحِكمةُ الأُولى والثَّالثةُ، فإنْ كان في الثَّانيةِ طمَعٌ استمَرَّ على التَّذكيرِ، وإلَّا لم يُكلَّفْ بالدَّوامِ، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: 260)

4- في قَولِه تعالى: سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى سُؤالٌ: أنَّ العِلمَ إنَّما يُسَمَّى «تذَكُّرًا» إذا كان قد حَصَل العِلمُ أوَّلًا ثمَّ نَسِيَه، وهذه الحالةُ غيرُ حاصلةٍ للكُفَّارِ، فكيف سَمَّى اللهُ تعالى ذلك بالتَّذَكُّرِ؟!

وجوابُه: أنَّ لقُوَّةِ الدَّلائِلِ وظُهورِها كأنَّ ذلك العِلمَ كان حاصِلًا، ثمَّ إنَّه زال بسَبَبِ التَّقليدِ والعِنادِ؛ فلهذا أسماه اللهُ تعالى بـ «التَّذكُّرِ» . أو لِما تقرَّر في الفِطَرِ .

5- في قَولِه تعالى: ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا سُؤالٌ: كيف قال ذلك، مع أنَّ الحيوانَ لا يخلو عن الاتِّصافِ بأحَدِهما؟!

الجوابُ: أنَّ مَعناه: لا يموتُ مَوتًا يَستريحُ به، ولا يَحْيا حياةً ينتَفِعُ بها، كقَولِه تعالى: لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا [فاطر: 36] .

وقيل: معناه: تَصعَدُ نَفْسُه إلى الحُلقومِ، ثمَّ لا تُفارِقُه؛ فيَموتَ، ولا ترجِعُ إلى مَوضِعِها مِن الجِسمِ؛ فيَحيا .

6- في قَولِه تعالى: ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ فإنَّه لَمَّا كان الأشقَى في الدُّنيا ليس بحَيٍّ الحياةَ النَّافِعةَ، ولا مَيِّتًا عديمَ الإحساسِ؛ كان في الآخِرةِ كذلك .

7- في سُورةِ (النُّورِ) جاء قولُه: وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ [النور: 21] ، أي: أنَّ اللهَ يُطهِّرُه مِن أدناسِ الكفْرِ والمعاصي بتَوفيقِه وهِدايتِه إلى الإيمانِ والتَّوبةِ النَّصوحِ والأعمالِ الصَّالحةِ، وهذا الَّذي دلَّت عليه هذه الآيةُ المذكورةُ لا يُعارِضُ قولَه تعالَى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [الشمس: 9] ، ولا قولَه: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى، على القولِ بأنَّ معْنى تَزَكَّى: تَطهَّرَ مِن أدناسِ الكفْرِ والمعاصي، ووَجْهُ ذلك في قولِه: مَنْ زَكَّاهَا أنَّه لا يُزكِّيها إلَّا بتَوفيقِ

اللهِ وهِدايتِه إيَّاهُ للعمَلِ الصَّالحِ، وقَبولِه منه، وكذلك الأمرُ في قولِه: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تزَكَّى .

8- قد جُمِعَت أنواعُ الخَيرِ في قولِه تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى؛ فإنَّ الفلاحَ نَجاحُ المرْءِ فيما يَطمَحُ إليه، فهو يَجمَعُ مَعنيَيِ الفوزِ والنَّفْعِ، وذلك هو الظَّفَرُ بالمُبْتغى مِن الخَيرِ .

9- قَولُه تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى استُدِلَّ به على مَشروعيَّةِ صلاةِ العيدِ، وزكاةِ الفِطرِ وتقديمِها على الصَّلاةِ، والتَّكبيرِ في العِيدِ . وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

بلاغة الآيات :

1- قولُه تعالَى: فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى

- قولُه: فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى بعْدَ أنْ ثَبَّتَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَكفَّلَ له ما أزال فَرَقَه مِن أعباءِ الرِّسالةِ، وما اطمَأنَّت به نفْسُه مِن دفْعِ ما خافَه مِن ضَعفٍ عن أدائِه الرِّسالةَ على وَجْهِها، وتَكفَّلَ له دفْعَ نِسيانِ ما يُوحَى إليه، إلَّا ما كان إنساؤُه مُرادًا للهِ تعالَى، ووعَدَه بأنَّه وفَّقه وهَيَّأَه لذلك، ويسَّرَه عليه؛ أعقَبَ ذلك بأنْ أمَرَه بالتَّذكيرِ، أي: التَّبليغِ، أي: بالاستِمرارِ عليه؛ إرهافًا لعَزْمِه، وشَحْذًا لنَشاطِه؛ ليكونَ إقبالُه على التَّذكيرِ معَ حرصٍ ومحبَّةٍ؛ فإنَّ امتِثالَ الأمرِ إذا عاضَدَه إقبالُ النَّفْسِ على فِعلِ المأمورِ به، كان فيه مَسرَّةٌ للْمأمورِ، فجمَعَ بيْن أداءِ الواجبِ وإرضاءِ الخاطِرِ؛ فالفاءُ للتَّفريعِ على ما تَقدَّمَ تَفريعَ النَّتيجةِ على المقدِّماتِ .

وقيل: الفاءُ في قولِه: فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى هي الفصيحةُ؛ أفْصَحَتْ عن شَرطٍ مُقدَّرٍ، أي: إنْ عَلِمْتَ أنَّك مِن أربابِ الفُيوضاتِ الكَماليَّةِ بهِدايتِنا وتَوفيقِنا؛ فذكِّرْ .

- ومَفعولُ فَذَكِّرْ مَحذوفٌ؛ لقصْدِ التَّعميمِ، أي: فذكِّرِ النَّاسَ، ودلَّ عليه قولُه: سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى الآيتَينِ .

- وجُملةُ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى مُعترِضةٌ بيْن الجُملتَينِ المُعلَّلةِ وعِلَّتِها، وهذا الاعتراضُ مَنظورٌ فيه إلى العُمومِ الَّذي اقتضاهُ حذْفُ مَفعولِ فَذَكِّرْ، أي: فدُمْ على تَذكيرِ النَّاسِ كلِّهم إنْ نَفَعَت الذِّكرى جَميعَهم، أي: وهي لا تَنفَعُ إلَّا البعضَ، وهو الَّذي يُؤخَذُ مِن قولِه: سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى الآيةَ .

أوِ الشَّرطُ في قولِه: إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى جُملةٌ مُعترِضةٌ، وليس مُتعلِّقًا بالجُملةِ، ولا تَقييدًا لمَضمونِها؛ إذْ ليس المعْنى: فذَكِّرْ إذا كان للذِّكرى نفْعٌ، حتَّى يُفهَمَ منه بطَريقِ مَفهومِ المخالفةِ ألَّا تُذكِّرَ إذا لم تَنفَعِ الذِّكرى؛ إذْ لا وَجْهَ لتَقييدِ التَّذكيرِ بما إذا كانت الذِّكرى نافعةً؛ إذْ لا سَبيلَ إلى تَعرُّفِ مَواقعِ نفْعِ الذِّكرى؛ ولذلك كان قولُه تعالَى: فَذَكِّرْ بِالْقُرْآَنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ [ق: 45] مُؤَوَّلًا بأنَّ المعْنى: فذَكِّرْ بالقُرآنِ، فيَتذكَّرُ مَن يَخافُ وَعيدِي، بلِ المرادُ: فذَكِّرِ الناسَ كافَّةً إنْ كانت الذِّكرى تَنفَعُ جَميعَهم، فالشَّرطُ مُستعمَلٌ في التَّشكيكِ؛ لأنَّ أصْلَ الشَّرطِ بـ (إنْ) أنْ يكونَ غيرَ مَقطوعٍ بوُقوعِه، فالدَّعوةُ عامَّةٌ، وما يَعلَمُه اللهُ مِن أحوالِ النَّاسِ في قَبولِ الهُدى وعدَمِه أمرٌ اسْتأثَرَ اللهُ بعِلمِه، فأبو جَهلٍ مَدعوٌّ للإيمانِ، واللهُ يَعلَمُ أنَّه لا يُؤمِنُ، لكنَّ اللهَ لم يَخُصَّ بالدَّعوةِ مَن يُرْجى منهم الإيمانُ دُونَ غيرِهم، والواقعُ يَكشِفُ المقدورَ، وهذا تَعريضٌ بأنَّ في القَومِ مَن لا تَنفَعُه الذِّكرى، وذلك يُفهَمُ مِن اجتِلابِ حرْفِ (إنْ) المُقتضِي عدَمَ احتِمالِ وُقوعِ الشَّرطِ أو نُدرةَ وُقوعِه؛

ولذلك جاء بعْدَه بقولِه: سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى؛ فهو استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: فَذَكِّرْ وما لَحِقَه مِن الاعتراضِ بقولِه: إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى المُشعرِ بأنَّ التَّذكيرَ لا يَنتفِعُ به جَميعُ المُذَكَّرينَ .

- قولُه: مَنْ يَخْشَى جِنسٌ لا فرْدٌ مُعيَّنٌ، أي: سيَتذكَّرُ الَّذين يَخشَون، والضَّميرُ المُستترُ في يَخْشَى مُراعًى فيه لَفظُ (مَن)؛ فإنَّه لَفظٌ مُفرَدٌ، وقد نُزِّلَ فِعلُ يَخْشَى مَنزلةَ اللَّازمِ فلمْ يُقدَّرْ له مَفعولٌ، أي: يَتذكَّرُ مَنِ الخشيةُ فِكرَتُه وجِبِلَّتُه، أي: مَن يَتوقَّعُ حُصولَ الضُّرِّ والنَّفعِ فيَنظُرُ في مَظانِّ كلٍّ ويَتدبَّرُ في الدَّلائلِ؛ لأنَّه يَخْشى أنْ يَحِقَّ عليه ما أُنذِرَ به .

2- قولُه تعالَى: وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى * الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا

- قولُه: وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى التَّجنُّبُ: التَّباعُدُ، وأصْلُه (تَفعَّلَ) لتَكلُّفِ الكَينونةِ بجانبٍ مِن شَيءٍ، والجانِبُ: المكانُ الَّذي هو طرَفٌ لغَيرِه، وتَكلُّفُ الكَينونةِ به كِنايةٌ عن طلَبِ البُعدِ، أي: بمَكانٍ بَعيدٍ منه، أي: يَتباعَدُ عن الذِّكرى الأشْقى .

- وتَعريفُ الْأَشْقَى تَعريفُ الجِنسِ؛ فيَشملُ جَميعَ المشركينَ، أي: الأشقَونَ، أو اللَّامُ للعهْدِ، والمرادُ شَخصٌ بعَينِه، أو الأشْقَى مِن الكَفَرةِ؛ لتَوغُّلِه في الكُفْرِ وعَداوةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم .

- ووُصِفَ الْأَشْقَى بأنَّه الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى؛ لأنَّ إطلاقَ الْأَشْقَى في هذه الآيةِ في صَدْرِ مُدَّةِ البَعثةِ المُحمديَّةِ، فكان فيه مِن الإبهامِ ما يَحتاجُ إلى البَيانِ، فأُتبِعَ بوَصْفٍ يُبيِّنُه في الجُملةِ ما نزَلَ مِن القُرآنِ مِن قبْلِ هذه الآيةِ .

- ومُقابَلةُ مَنْ يَخْشَى بـ الْأَشْقَى تُؤذِنُ بأنَّ الأشْقى مِن شَأنِه ألَّا يَخْشى، فهو سادِرٌ في غُرورِه، مُنغَمِسٌ في لَهْوِه، فلا يَتطلَّبُ لنفْسِه تَخلُّصًا مِن شَقائِه .
- في قَولِه تعالى: سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى احتِباكٌ ؛ ذَكَر الثَّمَرةَ في الأوَّلِ -وهي الخَشيةُ- دليلًا على حَذْفِ ضِدِّها مِنَ الثَّاني -وهي القَسوةُ النَّاشِئةُ على الحُكمِ بالشَّقاوةِ-، وذَكَر الأصلَ والسَّبَبَ في الثَّاني -وهو الشَّقاوةُ- دليلًا على حَذفِ ضِدِّه في الأوَّلِ -وهو السَّعادةُ-؛ فالإسعادُ سَبَبٌ، والخَشيةُ ثَمَرةٌ، والإشقاءُ سَبَبٌ، والقَساوةُ ثَمَرةٌ ومُسَبَّبٌ، وسِرُّ ذلك أنَّه ذَكَر مَبدأَ السَّعادةِ أوَّلًا؛ حَثًّا عليه، ومآلَ الشَّقاوةِ ثانيًا تحذيرًا منه .
- قولُه: الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى وَصْفُ النَّارِ بالكُبرى؛ للتَّهويلِ والإنذارِ .
- قولُه: ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (ثمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ تدُلُّ على أنَّ مَعطوفَها مُتراخي الرُّتبةِ في الغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ، وهو شِدَّةُ العذابِ؛ فإنَّ تَردُّدَ حالِه بيْن الحياةِ والموتِ وهو في عَذابِ الاحتراقِ، عَذابٌ أشدُّ ممَّا أفادَهُ أنَّه في عَذابِ الاحتراقِ؛ ضَرورةَ أنَّ الاحتراقَ واقعٌ وقد زِيدَ فيه دَرجةٌ: أنَّه لا راحةَ منه بمَوتٍ ولا مَخلَصَ منه بحياةٍ، فمعْنى لَا يَمُوتُ: لا يَزولُ عنه الإحساسُ؛ فإنَّ الموتَ فِقدانُ الإحساسِ، مع ما في هذه الحالةِ مِن الأُعجوبةِ، وهي ممَّا يُؤكِّدُ اعتبارَ تَراخي الرُّتبةِ في هذا التَّنكيلِ .
- وتَعقيبُ قولِه: لَا يَمُوتُ فِيهَا بقولِه: وَلَا يَحْيَا احتراسٌ ؛ لدفْعِ تَوهُّمِ أنْ يُرادَ بنفْيِ المَوتِ عنهم أنَّهم اسْتَراحوا مِن العذابِ، لِما هو مُتعارَفٌ مِن أنَّ الاحتراقَ يُهلِكُ المُحرَقَ، فإذا قيل: لَا يَمُوتُ تَوهَّمَ المُنذَرون أنَّ ذلك الاحتراقَ لا يَبلُغُ مَبلَغَ الإهلاكِ، فيَبقى المُحرَقُ حيًّا، فيُظَنُّ أنَّه إحراقٌ هيِّنٌ، فيَكونُ مَسلاةً للمُهدَّدينَ، فلِدَفْعِ ذلك عُطِفَ عليه وَلَا يَحْيَا، أي: حياةً خالصةً

مِن الآلامِ، والقَرينةُ على الوَصْفِ المذكورِ مُقابَلةُ وَلَا يَحْيَا بقولِه: يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا، وليس هذا مِن قَبيلِ نفْيِ وصْفَينِ لإثباتِ حالةٍ وسَطٍ بيْن حالَتَيْهما مِثل: لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ [النور: 35] ؛ لأنَّ ذلك لا طائلَ تَحتَه .

3- قولُه تعالَى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى

- قولُه: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ذِكرَ مَنْ يَخْشَى [الأعلى: 10] وذِكرَ الْأَشْقَى [الأعلى: 11] ، يُثيرُ استِشْرافَ السَّامعِ لمَعرفةِ أثَرِ ذلك، فابتُدِئَ بوَصْفِ أثَرِ الشَّقاوةِ، فوُصِفَ الْأَشْقَى بأنَّه يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى [الأعلى: 12] ، وأُخِّرَ ذِكرُ ثَوابِ الأتْقى؛ تَقديمًا للأهمِّ في الغرَضِ -وهو بَيانُ جَزاءِ الأشقى الَّذي يَتجنَّبُ الذِّكرى- وبقِيَ السَّامعُ يَنتظِرُ أنْ يَعلَمَ جَزاءَ مَن يَخْشى ويَتذكَّرُ، فلمَّا وُفِّيَ حقُّ المَوعظةِ والتَّرهيبةِ استُؤنِفَ الكلامُ لبَيانِ المَثوبةِ والتَّرغيبِ؛ فالمرادُ بـ مَنْ تَزَكَّى هنا عَيْنُ المرادِ بمَن يَخْشى ويَذَّكَّرُ؛ فقد عُرِّفَ هنا بأنَّه الَّذي ذَكَرَ اسمَ ربِّه، فلا جَرَمَ أنَّ ذِكرَ اسمِ ربِّه هو التَّذكُّرُ بالذِّكرى، فالتَّذكُّرُ هو غايةُ الذِّكرى المأمورِ بها الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قولِه تعالَى: فَذَكِّرْ [الأعلى: 9] .

- وأُتِيَ بكَلمةِ (قَدْ)؛ لِما أنَّ عندَ الإخبارِ بسُوءِ حالِ المُتجنِّبِ عن الذِّكرَى في الآخرةِ، يَتوقَّعُ السَّامعُ الإخبارَ بحُسنِ حالِ المُتذكِّرِ فيها ويَنتظِرُه .

- والإتيانُ بفِعلِ المُضِيِّ في قولِه: أَفْلَحَ؛ للتَّنبيهِ على المُحقَّقِ وُقوعُه مِن الآخرةِ، واقترانُه بحرْفِ (قدْ) لتَحقيقِه وتَثبيتِه، كما في قولِه تعالَى: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ [المؤمنون: 1] ، وقولِه: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [الشمس: 9] ؛ لأنَّ الكلامَ مُوجَّهٌ إلى الأشقَيْنَ الَّذين تَجنَّبوا الذِّكرى؛ إثارةً لهِمَّتِهم في الالْتِحاقِ بالَّذين خَشُوا فأفْلَحوا .

- ومعْنى تَزَكَّى عالَجَ أنْ يكونَ زكيًّا، أي: بذَلَ استطاعتَه في تَطهيرِ نفْسِه وتَزكيتِها، فمادَّةُ التَّفعُّلِ للتَّكلُّفِ وبَذْلِ الجُهدِ .

- وفي قولِه: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى قُدِّم التَّزكِّي على ذِكرِ اللهِ والصَّلاةِ؛ لأنَّه أصلُ العمَلِ بذلك كلِّه؛ فإنَّه إذا تَطهَّرتِ النَّفْسُ أشرَقَتْ فيها أنوارُ الهِدايةِ فعَلِمَت مَنافعَها، وأكثَرَت مِن الإقبالِ عليها، فالتَّزكيةُ: الارتياضُ على قَبولِ الخَيرِ، والمرادُ: تَزكَّى بالإيمانِ .

- في قَولِه: الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى احتباكٌ ؛ ذكَر أوَّلًا الصَّلَى دليلًا على حذفِ ضدِّه ثانيًا، وثانيًا: التَّزكيةَ دليلًا على حذفِ ضدِّها أوَّلًا .

- وتَفريعُ فَصَلَّى على (ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ)؛ لأنَّ الذِّكرَ بمَعنيَيْه -اللِّسانيِّ والتَّذكُّرِ- يَبعَثُ الذَّاكرَ على تَعظيمِ اللهِ تعالَى، والتَّقرُّبِ إليه بالصَّلاةِ الَّتي هي خُضوعٌ وثَناءٌ .

- وفيه تَرتيبٌ حسَنٌ، حيثُ رُتِّبَتْ هذه الخِصالُ الثَّلاثُ في الآيةِ على تَرتيبِ تَوَلُّدِها؛ فأصْلُها: إزالةُ الخَباثةِ النَّفسيَّةِ مِن عَقائدَ باطلةٍ وحَديثِ النَّفْسِ بالمُضمَراتِ الفاسِدةِ، وهو المُشارُ إليه بقَولِه: تَزَكَّى، ثمَّ استِحضارُ مَعرفةِ اللهِ بصِفاتِ كَمالِه وحِكمتِه ليَخافَه ويَرجوَه، وهو المشارُ بقولِه: وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ، ثمَّ الإقبالُ على طاعتِه وعِبادتِه، وهو المشارُ إليه بقولِه: فَصَلَّى، والصَّلاةُ تُشيرُ إلى العِبادةِ، وهي في ذاتِها طاعةٌ وامتِثالٌ يَأتي بعْدَه ما يُشرَعُ مِن الأعمالِ؛ قال تعالَى: إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ [العنكبوت: 45

ثم قال تعالى

(بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ۙ وَٱلۡـَٔاخِرَةُ خَيۡر وَأَبۡقَىٰٓ ١٧ۙ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ۙ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩ۙ)

<u>التفسير المأثور</u>

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ١٦ۙ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ١٧ۙ)

<u>قراءات:</u>

٨٢٧٤١ - عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقرأ: (بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَياةَ الدُّنْيا عَلى الآخِرَةِ) (٣). (١٥/ ٣٧٣)

٨٢٧٤٢ - عن عرفجة الثقفي، قال: استقرأتُ عبد الله بن مسعود: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى) فلما بلغ: (بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَياةَ الدُّنْيا) ترك القراءة، وأقبل على أصحابه، فقال: آثرنا الدنيا على الآخرة. فسكتَ القوم، فقال: آثرنا الدنيا؛ لأنّا رأينا زينتها ونساءها، وطعامها وشرابها، وزُويتْ عنا الآخرة؛ فاخترنا هذا العاجل، وتركنا الآجل. وقال: «بَلْ يُؤْثِرُونَ الحَياةَ الدُّنْيا» بالياء (٤) [٧١٣٧]. (١٥/ ٣٧٣).

أخرجه ابن جرير ٢٤/ ٣٢٢، والطبراني (٩١٤٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٦٤٥). وعزاه السيوطي إلى ابن المنذر.

قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٣٦: «فيه عطاء بن السّائِب، وقد اختلط، وبقية رجاله ثقات».

[٧١٣٧] اختلفت القرأة في قراءة قوله تعالى: (بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَياةَ الدُّنْيا) على قراءتين: الأولى: (تُؤْثِرُونَ) بالتاء وهي قراءة العشرة ما عدا أبا

عمرو. الثانية: «بَلْ يُؤْثِرُونَ» بالياء، وهي قراءة أبي عمرو. انظر: النشر ٣/ ٤٠٠، والإتحاف ص ٥٨٠.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٣٢٣) القراءة الأولى مستندًا إلى إجماع الحجّة من القرأة عليها، ثم قال: «وذُكِر أنّ ذلك في قراءة أُبيٍّ: (بَلْ أنتُمْ تُؤْثِرُونَ)، فذلك أيضًا شاهدٌ لصحة القراءة بالتاء».

ووجَّه ابنُ كثير (١٤/ ٣٢٧) قول ابن مسعود: «آثرنا الدنيا على الآخرة ...» بقوله: «وهذا منه على وجه التواضع والهضم، أو هو إخبار عن الجنس مِن حيث هو».

__تفسير الآية:__

٨٢٧٤٣ - عن عكرمة مولى ابن عباس، (بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَياةَ الدُّنْيا)، قال: يعني: هذه الأُمّة، وإنكم ستؤثرون الحياة الدنيا (١). (١٥/ ٣٧٤)

٨٢٧٤٤ - عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- (بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَياةَ الدُّنْيا) قال: اختار الناس العاجلة إلا مَن عصم الله، (والآخِرَةُ خَيْرٌ) في الخير، (وأَبْقى) في البقاء (٢). (١٥/ ٣٧٤)

٨٢٧٤٥ - قال مقاتل بن سليمان: (بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَياةَ الدُّنْيا) يقول: بل تختارون الحياة الدنيا، (والآخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقى) (٣). (ز)

__آثار متعلقة بالآية:__

٨٢٧٤٦ - عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا إله إلا الله تمنع العباد مِن سخط الله، ما لم يُؤثروا صفقة دنياهم على دينهم، فإذا آثروا

صفقة دنياهم على دينهم ثم قالوا: لا إله إلا الله. رُدّت عليهم، وقال الله: كذبتم» (٤).

أخرجه أبو يعلى في مسنده ٧/ ٩٥ (٤٠٣٤)، والبيهقي في الشعب ١٣/ ١٠٠ - ١٠١ (١٠٠١٥، ١٠٠١٦) واللفظ له.

قال ابن القيسراني في ذخيرة الحفاظ ٥/ ٢٥٩٠ - ٢٥٩١ (٦٠١٧): «رواه عمر بن حمزة بن عبد الله بن عمر، عن نافع بن مالك أبي سهيل عن أنس، وعمر هذا ضعيف». وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ٢٧٧ (١٢١٨٨): «رواه البزار، وإسناده حسن». وقال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة ٧/ ٤٣٣ (٧٢٦٢): «رواه أبو يعلى الموصلي بسند ضعيف؛ لضعف عمر بن حمزة»

٨٢٧٤٧ - عن ابن عمر، أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا يلقى اللهَ أحدٌ بشهادة أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، إلا دخل الجنة، ما لم يخلط معها غيرها». ردَّدها ثلاثًا، قال قائل من قاصية الناس: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، وما يخلط معها غيرها؟ قال: «حُبّ الدنيا، وأَثرة لها، وجمعًا لها، ورِضًا بها، وعمل الجبّارين» (١). (١٥/ ٣٧٤ - ٣٧٥)

أخرجه البيهقي في الشعب ١٣/ ١٠١ (١٠٠١٧)، من طريق علي بن عياش، ثنا سعيد بن سنان، حدثني أبو الزّاهرية، عن أبي شجرة، عن عبد الله بن عمر به.

إسناده ضعيف جدًّا؛ فيه سعيد بن سنان الحنفي أو الكندي أبو مهدي الحمصي، قال عنه ابن حجر في التقريب (٢٣٣٣): «متروك، ورماه الدارقطني وغيره بالوضع»

٨٢٧٤٨ - عن أبي موسى الأشعري، أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَن أحبَّ دنياه أضرّ بآخرته، ومَن أحبَّ آخرته أضرّ بدنياه، فآثِروا ما يبقى على ما يفنى» (٢). (١٥/ ٣٧٥)

أخرجه أحمد ٣٢/ ٤٧٠، ٤٧٢ (١٩٦٩٧، ١٩٦٩٨)، وابن حبان ٢/ ٤٨٦ (٧٠٩)، والحاكم ٤/ ٣٤٣ (٧٨٥٣)، ٤/ ٣٥٤ (٧٨٩٧).

قال الحاكم في الموضع الأول: «هذا حديث صحيح، على شرط الشيخين، ولم يخرجاه». وقال الذهبي في التلخيص: «فيه انقطاع». وقال الحاكم في الموضع الثاني: «هذا حديث صحيح». وقال المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٨٤ - ٨٥ (٤٩٠٣): «رواه أحمد، ورواته ثقات، والبزار، وابن حبان في صحيحه، والحاكم، والبيهقي في الزهد، وغيره كلهم من رواية المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن أبي موسى ... المطلب لم يسمع من أبي موسى». وقال الهيثمي في المجمع ١٠/ ٢٤٩ (١٧٨٢٥): «رواه أحمد، والبزار، والطبراني، ورجالهم ثقات». وقال الألباني في الضعيفة ١٢/ ٣٣٧ (٥٦٥٠): «ضعيف».

٨٢٧٤٩ - عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار مَن لا دار له، ومال مَن لا مال له، ولها يجمع مَن لا عقل له» (٣). (١٥/ ٣٧٥)

أخرجه أحمد ٤٠/ ٤٨٠ (٢٤٤١٩).

قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص ٣٥٠ (٤٩٤)، والعجلوني في كشف الخفاء ١/ ٤٦٩ (١٣١٥): «رجاله ثقات». وقال المناوي في

التيسير ٢/ ١٣: «أسانيد صحيحة». وقال في فيض القدير ٣/ ٥٤٦ (٤٢٧٤): «قال المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ٨٦ (٤٩١٢)، والحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ص ١١٠٣: إسناده جيد». وقال الهيثمي مجمع الزوائد ١٠/ ٢٨٨ (١٨٠٧٨): «رجال أحمد رجال الصحيح، غير دويد وهو ثقة». وقال الألباني في الضعيفة ٤/ ٤٠٥ (١٩٣٣): «ضعيف».

(إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ١٨ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ١٩)

٨٢٧٥٠ - عن عبد الله بن عباس، قال: لما نزلت: (إنَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولى صُحُفِ إبْراهِيمَ ومُوسى)، قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هي كلّها في صحف إبراهيم وموسى» (٤). (١٥/ ٣٧٦)

أخرجه الحاكم ٢/ ٢٥٨ (٢٩٣٠) مطولًا.

وقال البزار -كما في كشف الأستار ٣/ ٨٠ (٢٢٨٥) -: «لا نعلم الثقات عن عطاء، عن عكرمة، عن ابن عباس، إلا هذا الحديث وحديثًا آخر». وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». وقال الهيثمي في المجمع ٧/ ١٣٧ (١١٤٨٩): «رواه البزار، وفيه عطاء بن السّائِب وقد اختلط، وبقية رجاله رجال الصحيح».

٨٢٧٥١ - عن أبي ذرّ، قال: قلتُ: يا رسول الله، كم أنزل الله من كتاب؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل على شِيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وعلى موسى قبل

التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة، والإنجيل، والزّبور، والفرقان». قلتُ: يا رسول الله، فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «أمثال كلّها؛ أيّها الملك المُتسلّط المُبْتلى المغرور، لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكن بعثتُك لتردّ عني دعوة المظلوم، فإني لا أردّها ولو كانت مِن كافر، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبًا على عقله أن يكون له ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربّه، وساعة يحاسب فيها نفسه ويتفكّر فيما صنع، وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال؛ فإنّ في هذه الساعة عونًا لتلك الساعات، واستجمامًا للقلوب (الجمام: الراحة، وتجم الفؤاد: أي تريحه، وقيل: تجمعه وتكمل صلاحه ونشاطه. اللسان العرب) وتفريغًا لها، وعلى العاقل أنْ يكون بصيرًا بزمانه، مُقبلًا على شأنه، حافظًا للسانه، فإنّ مَن حسب كلامه من عمله أقلَّ الكلام إلا فيما يعنيه، وعلى العاقل أنْ يكون طالبًا لثلاث؛ مَرَمَّة لمعاش، (المرمة: متاع البيت. اللسان (رمم)) أو تزوُّدٌ لمعاد، أو تلذُّذٌ في غير مُحرّم». قلتُ: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: «كانت عِبرًا كلها؛ عجبتُ لمن أيقن بالموت ثم يفرح، ولمن أيقن بالنار ثم يضحك، ولمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم يطمئن إليها، ولمن أيقن بالقَدَر ثم يَنصَب، ولمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل». قلت: يا رسول الله، هل أنزل الله عليك شيئًا مما كان في صحف إبراهيم وموسى؟ قال: «يا أبا ذرّ، نعم: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكّى وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَياةَ الدُّنْيا والآخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقى إنَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولى صُحُفِ إبْراهِيمَ ومُوسى)» (٣). (١٥/ ٣٧٨)

أخرجه الشجري في ترتيب الأمالي الخميسية ١/ ٢٦٨ - ٢٧٠ (٩١٥)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٣/ ٢٧٦ - ٢٧٩ مطولًا، وأخرجه ابن حبان ٢/ ٧٦ - ٧٩ (٣٦١) دون ذكر الآية.

قال الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف ٢/ ٣٩١: «معان وعلي بن يزيد والقاسم؛ ثلاثتهم ضعفاء، وقد خالف ابن حبان في هذا الحديث أبو الفرج بن الجوزي، فأورده في كتابه الموضوعات، واتهم به إبراهيم بن هشام، ولا شكّ أنه تَكلّم فيه أئمة الجرح والتعديل مِن أجل هذا الحديث».

٨٢٧٥٢ - عن عبد الله بن عباس -من طريق عكرمة- في قوله: {إنَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولى} الآية، قال: نُسخت هذه السورة مِن صحف إبراهيم وموسى. ولفظ سعيد: هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى. ولفظ ابن مردويه: وهذه السورة وقوله: {وإبْراهِيمَ الَّذِي وفّى} [النجم: ٣٧] إلى آخر السورة من صحف إبراهيم وموسى (١). (١٥/ ٣٧٦)

٨٢٧٥٣ - عن أبي العالية الرِّياحيّ -من طريق الربيع- {إنَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولى}، يقول: قصة هذه السورة في الصحف الأولى (٢). (١٥/ ٣٧٧)

٨٢٧٥٤ - عن عكرمة مولى ابن عباس -من طريق سفيان، عن أبيه- {إنَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولى} قال: هؤلاء الآيات (٣). (١٥/ ٣٧٧)

٨٢٧٥٥ - عن الحسن البصري، {إنَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولى}، قال: في كتب الله كلّها (٤). (١٥/ ٣٧٧)

٨٢٧٥٦ - عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر- {إنَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولى}، قال: ما قصَّ الله في هذه السورة (٥). (١٥/ ٣٧٧)

٨٢٧٥٧ - عن قتادة بن دعامة -من طريق سعيد- (إنَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولى)، قال: تتابعتْ كتبُ الله -كما تسمعون- أنّ الآخرة خير وأبقى (٦). (١٥/ ٣٧٧)

٨٢٧٥٨ - عن إسماعيل السُّدِّيّ، قال: إنّ هذه السورة في صحف إبراهيم وموسى مثل ما أُنزِلَتْ على النبي ﷺ (٧). (١٥/ ٣٧٧)

٨٢٧٥٩ - قال مقاتل بن سليمان: (إنَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولى) الكتب الأولى؛ (صُحُفِ إبْراهِيمَ) كتب إبراهيم، (و) كتاب (مُوسى) وهي التوراة، فأمّا صحف إبراهيم فقد رُفعتْ (٨). (ز)

٨٢٧٦٠ - عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -من طريق ابن وهب- (إنَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولى) الآية، قال: في الصحف الأولى أنّ الآخرة خير من الدنيا (١) [٧١٣٨]. (١٥/ ٣٧٧).

[٧١٣٨] اختُلف في المشار إليه بـ (هذا) في هذه الآية على أقوال: الأول: أُشير به إلى الآيات التي في (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلى). الثاني: إلى قصة هذه السورة. الثالث: إنّ هذا الذي قضى الله في هذه السورة لفي الصُّحف الأولى. الرابع: أن قوله: (والآخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقى) في الصُّحف الأولى.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٤/ ٣٢٥) -مستندًا إلى الأظهر لغة- أنّ «قوله: (قَدْ أفْلَحَ مَن تَزَكّى وذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَياةَ الدُّنْيا والآخِرَةُ خَيْرٌ وأَبْقى)، لفي الصحف الأولى، صحف إبراهيم خليل الرحمن، وصحف موسى بن عمران». وعلَّل ذلك بقوله: «لأنّ (هذا) إشارةٌ إلى حاضرٍ، فلأَن يكون إشارة إلى ما قَرُب منها أولى من أن يكون إشارة إلى غيره».

ونحوه قال ابنُ عطية (٨/ ٥٩٤).

وكذا ابنُ كثير (١٤/ ٣٢٨) فقال: «وهذا اختيار حسن قوي».

التفسير المحرر

(بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩)

غريب الكلمات:

تُؤْثِرُونَ: أي: تُقَدِّمونَ وتَختارونَ، وأصلُ (أثر) هنا: يدُلُّ على تقديمِ الشَّيءِ.

المعنى الإجمالي:

يقولُ تعالى: ولَكِنَّكم لا تَقومونَ بالذِّكرِ وأداءِ الصَّلاةِ؛ لأنَّكم تُقدِّمونَ مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا على ثوابِ الآخِرةِ، وثوابُ اللهِ في الآخِرةِ أفضَلُ وأدوَمُ لكم مِن مَتاعِ الدُّنيا ولَذَّاتِها الفانيةِ.

ثمَّ يختِمُ اللهُ تعالى السُّورةَ الكريمةَ فيقولُ: إنَّ ما أخبَرَ اللهُ تعالى به في قَولِه: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى مَذكورٌ في الصُّحُفِ الماضيةِ؛ صُحُفِ إبراهيمَ ومُوسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ.

تفسير الآيات:

بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16).

أي: ولَكِنَّكم لا تَقومونَ بالذِّكرِ وأداءِ الصَّلاةِ؛ لأنَّكم تُقدِّمونَ مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا على ثوابِ الآخِرةِ، فتَنشغِلونَ بأُمورِ دُنياكم عن أمورِ دِينِكم .

كما قال تعالى: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ [آل عمران: 14] .

وقال سُبحانَه: أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ [التكاثر: 1] .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/322)، ((تفسير ابن كثير)) (8/382)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (21/405)، ((تفسير السعدي)) (ص: 921)، ((تفسير ابن عاشور)) (30/290). قال ابنُ عطيَّة: (أخبَرَ تعالى النَّاسَ أنَّهم يُؤْثِرونَ الحياةَ الدُّنيا؛ فالكافِرُ يُؤثِرُها إيثارَ كُفرٍ، يرى أنْ لا آخِرةَ، والمؤمِنُ يُؤثِرُها إيثارَ مَعصيةٍ وغَلَبةَ نَفْسٍ إلَّا مَن عَصَمَ اللهُ). ((تفسير ابن عطية)) (5/470).

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17).

أي: وثوابُ اللهِ في الآخِرةِ أفضَلُ وأدوَمُ لكم مِن مَتاعِ الدُّنيا ولَذَّاتِها القليلةِ الفانيةِ؛ فنَعيمُ الجنَّةِ كامِلٌ لا نَقْصَ فيه، وأبَدِيٌّ لا يَنتهي .

كما قال تعالى: وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ [القصص: 60] .

وقال جَلَّ شأنُه: إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ [غافر: 39] .

وعن المُسْتَوْرِدِ بنِ شَدَّادٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((واللهِ ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا مِثلُ ما يجعَلُ أحَدُكم إصْبَعَه هذه -وأشار بالسَّبَّابةِ- في اليَمِّ، فلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ ؟!)) .

إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18).

أي: إنَّ ما أخبَرَ اللهُ تعالى به في قَولِه: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى مذكورٌ في الصُّحُفِ الماضيةِ .

صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19).

<u>مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:</u>

لَمَّا كان ذلك عامًّا خَصَّ مِن بَينِه -تعظيمًا لقَدْرِ هذه الموعِظةِ- أعظَمَ الأنبياءِ الأقدَمِينَ .

صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19).

أي: وتلك الصُّحُفُ هي المنَزَّلةُ على إبراهيمَ ومُوسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (24/325)، ((الوسيط)) للواحدي (4/472)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: 170). قال السعدي: (صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى اللَّذينِ هما أشرَفُ المرسَلِينَ سِوى النَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير السعدي)) (ص: 921

الفوائد التربوية:

1- قال اللهُ تعالى: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا اعلَمْ أنَّ للمؤمنينَ حظًّا مِن هذه المَوعظةِ على طُولِ الدَّهرِ، وذلك حظٌّ مُناسِبٌ لمِقدارِ ما يُفرِّطُ فيه أحدُهم ممَّا يُنجِيه في الآخرةِ إيثارًا لِما يَجْتنيهِ مِن مَنافعِ الدُّنيا الَّتي تَجُرُّ إليه تَبِعةً في الآخرةِ على حسَبِ ما جاءتْ به الشَّريعةُ، فأمَّا الاستكثارُ مِن مَنافعِ الدُّنيا مع عدَمِ إهمالِ أسبابِ النَّجاةِ في الآخرةِ، فذلك مَيدانٌ للهِمَمِ، وليس ذلك بمَحلِّ ذمٍّ؛ قال تعالَى: وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا [القصص: 77] .

2- في قَولِه تعالى: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى الإشارةُ إلى مَدْحِ الزُّهدِ في الدُّنيا، وذَمِّ الرَّغبةِ فيها .

3- أنَّ عَمَلَ الآخرةِ لا يَصِحُّ أنْ يكونَ وَسيلةً لعَمَلِ الدُّنيا؛ فإنَّ عَمَلَ الآخرةِ أشرفُ وأعلى مِن أنْ يكونَ وسيلةً لعَمَلِ الدُّنيا الَّذي هو أدنى؛ قال اللهُ تعالى: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى !

4- في قَولِه تعالى: وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إشارةٌ إلى التَّرغيبِ في الآخِرةِ وفي ثَوابِ اللهِ تعالى ، فالآخِرةُ خَيرٌ مِنَ الدُّنيا في كُلِّ وَصفٍ مَطلوبٍ، وَأَبْقَى؛ لكَونِها دارَ خُلدٍ وبَقاءٍ وصَفاءٍ، والدُّنيا دارُ فَناءٍ، فالمؤمِنُ العاقِلُ لا

يختارُ الأردَأَ على الأجوَدِ، ولا يبيعُ لَذَّةَ ساعةٍ بتَرحةِ الأبدِ؛ فحُبُّ الدُّنيا وإيثارُها على الآخِرةِ رأسُ كُلِّ خَطيئةٍ .

الفوائد العلمية واللطائف:

1- قال اللهُ تعالى: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إيثارُ الدُّنيا على الآخِرةِ إمَّا مِن فسادٍ في الإيمانِ، وإمَّا مِن فَسادٍ في العَقلِ، وما أكثَرَ ما يكونُ منهما؛ ولهذا نبَذَها رَسولُ اللهِ وراءَ ظَهْرِه هو وأصحابُه، وصَرَفوا عنها قُلوبَهم، واطَّرَحوها ولم يألَفوها، وهَجَروها ولم يَميلوا إليها، وعَدُّوها سجنًا لا جنَّةً، فزَهِدوا فيها حقيقةَ الزُّهدِ، ولو أرادوها لَنالوا منها كُلَّ محبوبٍ، ولَوَصَلوا منها إلى كلِّ مَرغوبٍ؛ فقد عُرِضَت عليه صلَّى الله عليه وسلَّم مفاتيحُ كُنوزِها فردَّها، وفاضت على أصحابِه فآثَروا بها، ولم يَبيعوا حَظَّهم مِن الآخِرةِ بها، وعَلِموا أنَّها مَعْبَرٌ ومَمَرٌّ، لا دارُ مُقامٍ ومُستَقَرٍّ، وأنَّها دارُ عُبورٍ لا دارُ سُرورٍ، وأنَّها سحابةُ صَيفٍ تَنقشِعُ عن قليلٍ، وخيالُ طَيفٍ ما استتَمَّ الزِّيارةَ حتَّى آذَنَ بالرَّحيلِ، قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((ما لي وللدُّنيا؟! ما أنا والدُّنيا؟ إنَّما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنيا كراكِبٍ ظلَّ تحتَ شَجرةٍ، ثمَّ راح وتَرَكها)) .

2- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا في قَولِه تعالى: الدُّنْيَا دُنُوُّ الدُّنيا مرتبةً ودَناءَتُها؛ فهي وإنْ كانت حياةً لكِنَّها دُنيا، ويَستلزِمُ ذلك الثَّناءَ على الآخرةِ؛ لأنَّ وَصْفَ الضَّرَّةِ بالعَيبِ يدُلُّ على وَصْفِ ضَرَّتِها بالكَمالِ.

3- في قَولِه تعالى: إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى نَصٌّ على أنَّ في القرآنِ مِمَّا في الصُّحُفِ الأُولى، وقد جاء ما يدُلُّ أنَّ معانيَ أُخرى كذلك في صُحُفِ إبراهيمَ وموسى، كما في سورةِ «النَّجمِ» في قَولِه تعالى: أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى [النجم: 36 - 40] .

<u>بلاغة الآيات</u> :

1- قولُه تعالَى: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى

- قولُه: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (بَلْ) هنا عاطفةٌ جُملةً عطْفًا صُوريًّا؛ فيَجوزُ أنْ تكونَ لمُجرَّدِ الانتقالِ مِن ذِكرِ المُنتفِعينَ بالذِّكرى والمُتجنِّبينَ لها، إلى ذِكرِ سَببِ إعراضِ المُتجنِّبينَ -وهم الأشْقَونَ- بأنَّ السَّببَ إيثارُهم الحياةَ الدُّنيا، وذلك على قِراءةِ يُؤثِرونَ ظاهرٌ، وأمَّا على قِراءةِ تُؤْثِرُونَ فهو إضرابٌ عن حِكايةِ أحوالِ الفَريقينِ بالانتقالِ إلى تَوبيخِ أحَدِ الفريقينِ، وهو الفريقُ الأشْقى، فالخِطابُ مُوجَّهٌ إليهم على طَريقةِ الالتِفاتِ؛ لتَجديدِ نَشاطِ السَّامعِ؛ لكيْ لا تَنقضيَ السُّورةُ كلُّها في الإخبارِ عنهم بطَريقِ الغَيبةِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ الإضرابُ إبطالًا لِما تَضمَّنَه قولُه: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى [الأعلى: 14] مِن التَّعريضِ للَّذين شَقُوا بتَحريضِهم على طلَبِ الفلاحِ لأنفُسِهم؛ ليَلتحِقوا بالَّذين يَخشَون ويَتزَكَّون؛ ليَبطُلَ أنْ يَكونوا مَظِنَّةَ تَحصيلِ الفلاحِ، والمعْنى: أنَّهم بُعداءُ عن أنْ يُظَنَّ بهم التَّنافسُ في طلَبِ الفَلاحِ؛ لأنَّهم يُؤثِرون الحياةَ الدُّنيا؛ فالمعْنى: بلْ أنتم تُؤثِرون مَنافِعَ الدُّنيا

على حُظوظِ الآخِرةِ، وهذا كما يقولُ النَّاصحُ شَخصًا يظُنُّ أنَّه لا يَنتَصِحُ: لقد نَصَحْتُك، وما أظُنُّك تَفعَلُ .

وقيل: قولُه: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فيه الْتفاتٌ في قولِه: تُؤْثِرُونَ -إذا كان الخِطابُ مُوجَّهًا إلى الكفَّارِ- لتَشديدِ التَّوبيخِ، وإذا كان مُوجَّهًا لهم وللمُسلمينَ؛ ففي حقِّ الكفَرةِ لتَشديدِ التَّوبيخِ، وفي حَقِّ المسلمينَ لتَشديدِ العِتابِ .

- والإيثارُ: اختيارُ شَيءٍ مِن بيْنِ مُتعدِّدٍ، والمعْنى: تُؤثِرون الحياةَ الدُّنيا بعِنايَتِكم واهتِمامِكُم. ولم يُذكَرِ المُؤثَرُ عليه؛ لأنَّ الحياةَ الدُّنيا تدُلُّ عليه، أي: لا تَتأمَّلون فيما عَدا حَياتَكم هذه، ولا تَتأمَّلون في حياةٍ ثانيةٍ؛ فالمشرِكون لا يُؤمِنون بالآخِرةِ، وإذا ذُكِّروا بالحياةِ الآخِرةِ وأُخبِروا بها، لم يُعِيروا سَمْعَهم ذلك، وجَعَلوا ذلك مِن الكلامِ الباطلِ، وهذا مَورِدُ التَّوبيخِ . وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى حالٌ مِن فاعِلِ تُؤْثِرُونَ مؤكِّدةٌ للتَّوبيخِ والعِتابِ، أي: تُؤثِرونَها على الآخِرةِ، والحالُ أنَّ الآخِرةَ خَيرٌ في نَفْسِها؛ لِما أنَّ نَعيمَها مع كَونِه في غايةِ ما يكونُ مِنَ اللَّذَّةِ خالِصٌ عن شائِبةِ الغائِلةِ، أبَدِيٌّ لا انْصِرامَ له، وعدَمُ التَّعرُّضِ لبَيانِ تَكدُّرِ نَعيمِ الدُّنيا بالمُنغِّصاتِ وانقِطاعِه عمَّا قَليلٍ؛ لِغايةِ ظُهورِه .

- وفي قَولِه: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى احتباكٌ ؛ ذِكرُ الإيثارِ والدُّنُوِّ أوَّلًا يدُلُّ على التَّركِ والعلوِّ ثانيًا، وذِكرُ الخَيرِ والبقاءِ ثانيًا يدُلُّ على ضِدِّهما أوَّلًا .

2- قولُه تعالَى: إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى تَذييلٌ للكلامِ، وتَنويهٌ به بأنَّه مِن الكلامِ النَّافعِ الثَّابتِ في كُتُبِ إبراهيمَ

ومُوسى عليهما السَّلامُ، قُصِدَ به الإبلاغُ للمشرِكينَ الَّذين كانوا يَعرِفون رِسالةَ إبراهيمَ ورِسالةَ مُوسى؛ ولذلك أُكِّدَ هذا الخبَرُ بحرْفِ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ؛ لأنَّه مَسوقٌ إلى المُنكِرين .

- ووَجْهُ جمْعِ الصُّحفِ أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ كانتْ له صُحفٌ، وأنَّ مُوسى عليه السَّلامُ كانت له صُحفٌ كَثيرةٌ، وهي مَجموعُ صُحفِ أسفارِ التَّوراةِ .

- جاء نظْمُ الكلامِ في قولِه: إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى على أُسلوبِ الإجمالِ والتَّفصيلِ؛ ليَكونَ لهذا الخبَرِ مَزيدُ تَقريرٍ في أذهانِ النَّاسِ؛ فقولُه: صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى بدَلٌ مِن الصُّحُفِ الْأُولَى . وفي إبهامِها ووصْفِها بالقِدَمِ، ثمَّ بَيانِها وتَفسيرِها مِن تَفخيمِ شَأنِها؛ ما لا يَخْفى .